ايف ديسار



مصير افريقيا

ترجمة

غياث حجار



دار الاتحاد

مصير افريقيا

Ève dessarre

QUEL SERA LE DESTIN DE L'AFRIQUE

Avril 1961

ايف ديسار

مصير افريقيا

ترجمة

غياث حجار

منشورات
دار الاتحاد
مطابع دار الصحافة
محطة الناصرة
بيروت

مقدمة

أفريقيا ، القارة الجديدة القديمة ، التي تشغل الآن أذهان اكثر سياسيي العالم ، مــا هو مصيرها ؟ الكونغو ، غينيا ، غانا ، مالي ، السنغال ، التفرقة العنصرية ، اتحاد روديسيا ، كلها اسماء وتعابير كانت لعدة سنوات خلت لا تلفت انتباهنا . اما الآن فإن العالم الأسود النائم قد استيقظ وبدأ هديره يصم الآذان . انه صوت الانسان الذي يريد ان يتحرر ويفتح طريقه إلى الكرامة والنور .

افريقيا ، ارض المآسي والعبيد والشهداء ، ارض لومومبا وجومو كينياتا وسيكوتوري ونكروما وموديبو كيتا ، وملايين البشر السائرين في الطريق الصاعد ، يعبدون دروب الحرية بالدماء والتضحيات ، ما هو مصيرها ؟

الكتاب الذي نقلناه الى العربية يحاول القاء بعض الاضواء على هذا المصير ، ونحن لا ندعي انه يتنبأ فيحدد اشكال وسير هذا المصير ، ولكنه محاولة جريئة متفهمة لمشاكل افريقيا ومطامح شعوبها .

الوحدة الافريقية ، التي تدعو لها المؤلفة ، تراود احلام الكثيرين من الافريقيين ، والمؤلفة تحاول ان تتلمس النقاط التي تبشرها بها ،

بشوق واندفاع لا يدانيها الا حسرتها الصادقة المخلصة لانفصام اتحاد مالي الذي كان سببه ، كما تقول آسفة ، حكومتها وسياسة بلادها الاستعمارية .

ان افريقيا التي تشكل سند كفاح الأمة العربية الجنوبي المغربي ، افريقيا التي رفض جنودها محاربة جيش التحرير الوطني الجزائري ، افريقيا التي يتردد أسمها على كل شفة ولسان ، لثروتها الخبيئة الكامنة ، وامكانياتها البشرية والمعنوية الهائلة ، افريقيا هذه ، يجب ان يعرف القارىء العربي اشياء كثيرة عنها ، وكتابنا هذا محاولة لأعطائه بعض الزاد المفيد القيم .

وهل اروع مما قاله ايميه سيزار ، الشاعر الأفريقي عنها :

« هؤلاء الذين لم يخترعوا البارود ولا البوصلة ،

« هؤلاء الذين لم يعرفوا قط السيطرة على البخار والكهرباء .

« هؤلاء الذين لم يستكشفوا البحار او السماء ،

« ولكنهم عرفوا بلاد الآلام في اقصى زواياها . »

المترجم .

رجال الأمس

في اليوم الذي تلا وصولي الى دكار ، صدمني رجل ضخم الجثة يلبس البوبو ، وهو اللباس القومي السنغالي ، وينتعـــل « بابوشاً » من فندق الدرجة الثانية الذي كنت فيه منذ يومين او ثلاثة . لان مظهر المؤسسة مهم ، ولذلك يفضل رجال الدول الافريقية الجديدة الفنادق الفخمة ، حيث يكونون مشابهين تماماً لبقية رجال الدول في بقية القارات . ولم يكن الرجل يبعد كثيراً عن سن الستين ، وهذا الامر له اهمية ايضاً .
وبعد ان عرف صفتي الصحفية ، قال : « ارجو ان تكتبي الحقيقة عن هذا البلد ! » وطمأنته مؤكدة ان هـــذا هو هدفي ، فقدم الي نفسه كرئيس التجمع الافريقي الافرنسي واضاف : « ونحن ضد العهد » ولما لاحظ انني اصغي اليه باهتمام متزايد ، القى محاضرة قصيرة ادهشتني ! « وبعد ! قولي في باريس اننا ضد سنغور ، لقد خان عندما قبل الاستقلال من صوت الى جانب فرنسا وانا منهم » وأستنتج : « ان اعضاء التجمع يحفظون لبلدكم الحب والشكران ؛ وهم يحسون انهم فرنسيون . »
واستقصيت فعلمت ان التجمع لا يضم الا اعضـــاء قليلين وجدت

السلطات انه من غير المفيد منعه . ان سير هذا الرجل نحو الشيخوخة شيء معبر ، فهو ومن يشبهه ، لم يتقبلوا ، مثل بعض الاوروبيين ، التغييرات السياسية التي حصلت في وطنهم . ان لهجتهم عنيفة نوعاً ما ، اما افكارهم فانها لا تتغير ؛ فالاستقلال يمثل في نظرهم تدبيراً جافاً ان لم نقل غير لازم .

يسكن السيد ندياي ليمالي مدينة سان لويس في السنغال ، وهناك خلق ، وهو مدرس متقاعد ويدير حالياً مدرسة علمانية خاصة انشأها . وقد عرض علي النزول عنده . وهو كريم كبقية الافريقيين . وفي احاديثه الطويلة كان يظهر تعلقه الواضح بفرنسا ويردد ما ارجح انه يقوله لتلاميذه ، ان الشعب السنغالي ليس ناضجاً لينال الحكم الذاتي ، اما هو فيكتفي بالاستقلال الداخلي في السنوات العشر القادمة . ولكنه مع ذلك لا يكن العداء لحكومة سنغور التي تشكل في نظره اهون الشرين : وقد اعترف لي بفخر انه وعلم سنغور عضو عامل في حزب اتحاد الشعب ، حزب الحكومة .

وزايلت الصحة نفسه ، مع بعض الفروقات البسيطة ، عند السيد دمبا ديالو ناظر الاشغال العامة في روسو ، قرب حدود موريتانيا ، لقد كان يتذكر بحنين الزمن الماضي الطيب ، اي زمن الادارة الفرنسية ، عندما كانت مدينته سان لويس لا تزال العاصمة . كان كل شيء يسير على احسن ما يرام . كان الشبان يحترمون الكبار ، بينما يكرهون في الوقت الحاضر التقاليد العريقة .

اما السيد هنري موبيه ، صاحب مشرب في احدى ضواحي دكار ، فقد كان متضايقاً (لان الشيوعية تتوسع في الجمهورية مالي) واكد

بصوت منفعل « ان جمود السود سيختفي رويداً رويداً . » ونحن نشير الى ان السيد هوبيه هو من اصل غيني ، ولكنه لا يريد العودة الى بلده وانه عمل تجاراً وموظفاً قبل ان يتخرط لسنوات في الجيش الافرنسي ، حيث حاز على رتبة مسؤول عن بيوت الضباط . كان يتأسف على باريس ، وخصوصاً على ثكنة كليينانكور ونجوارها ، وقد شجع واحداً من اولاده على الدخول في الطيران الفرنسي .

وهذه الامثلة تمثل عقلية جيل افريقي باكمله ، ذلك انني رأيت في شاطيء العاج ، رجال الامن هؤلاء ، يراقبون بحذر ، وفي بعض الاحيان بمرارة ، تطور قارتهم السريع . وعددهم في غانا ومالي قليل ولكنهم موجودون ، فقد رأيت في باماكو تجاراً وموظفين يدعون ان الوضع يسير من سيء الى اسوأ . وحدثني مثقف من اكرا عن فساد الشرطة . ولكن المسؤولين في هذين البلدين قد نجحوا فعلاً بوسائل مختلفة ، في خلق تيار يجرف معه المستائين والمتخوفين .

وعلى الصعيد الاخلاقي والثقافي ، نجد ان وضع هؤلاء الرجال يقارب في صعوبته وضع البيض . انه محكوم عليهم بنزاع دائم مع مواطنيهم ومع انفسهم . فهم لا يستطيعون ان يصرحوا علناً ان الاستقلال يزعجهم بسبب هذه التغيرات الاجتماعية التي نتجت عنه في غينيا ومالي ، والتي ستحدث عاجلاً او آجلاً في بلدهم . انهم لا يستطيعون القول علناً « ان ثروتنا وسلطتنا مستمدتان من المستعمرين » وهم عندما لم يستطيعوا تأكيد ميزاتنا المتوارثة ، اخترعوا غيرها ليكتسبوا صداقتنا . » ومع ذلك فان هذه هي حالة غالبية بلدان افريقيا التي طال احتكاكها بالاوروبيين ، كالسنغال وشاطيء العاج وغانا . والمشكلة اخف في مالي

التي كان الفرنسيون يعتبرونها بلاداً فقيرة وقد نظمت على انها روافد مرافيء السنغال . ولكن في « اموي » قرب بندو كو ، في اقصى الجنوب الشرقي من شاطيء العاج ، يستمر الامير كونامي اونغرا ، وهو الذي عين من قبل المستعمرين وابقي في مركزه من قبل حكومة هوفويه ، بوانيي (١) يستمر في الحكم ، بكل معنى الكلمة على ١٥٠٠٠٠٠ من الرجال وهو يعيش عملياً عالة على اتباعه ، الذين يسكن ثلاثة ارباعهم ، على كل حال ، في غانا . وعلى كل عائلة ان تكرس ولدها الأكبر للعمل - دون اجر طبعاً - في خدمته او عاملاً في مزارعه التي تنتج الكاكاو والقهوة . وهو يتلقى بالاضافة الى ذلك « هدايا » من مختلف الأنواع .

وهناك بعض الرؤساء والسلاطين الصغار ، عينوا في رئاسة القرى والمقاطعات من قبل الاوروبيين سادة البلاد . ولا شك ان الشبان ، وخصوصاً الذين درسوا في اوروبا ، لا يستطيعون الصبر ولا يظهرون حماسهم في تأييد امراء مثل اونغرا وبقية ممثلي البورجوازية التي انشأتها كلها الدول المستعمرة . ان السيد دمبا ديالو لم يكن مخطئاً في شكواه . فالعادات تختفي فعلاً ، ولا شك ان اولاد العائلات الكبار لن يقبلوا لوقت طويل ان يخدموا اميرهم مجاناً .

انهم بورجوازيون ، ولكننا اذا قارناهم ببورجوازيي الرأسماليات الاوروبية والاميركية لظهرت املاكهم متواضعة ، ولكن ثروتهم تظهر فاحشة اذا ما قارناهم بالجماهير الفقيرة في هذه البلدان المتخلفة .

---

(١) رئيس دولة شاطيء العاج .

فالى جانب السلطة التي يتمتع بها بورجوازيونا الاوروبيون الاميركيون في مجالس ادارة المصارف والمؤسسات العملاقة ، يتمتع رجال افريقيا القدامى بسلطة ابوية تظهر لنا خيالية . وهم يتعلقون بها مستميتين لأنهم يخشون ان يفقدوها في الغد في بيوتهم ذاتها . وقد تكونت جمعيات نسائية وغير نسائية وناقشت بعضها حق الآباء على بناتهم ، وخصوصاً حقهم في طلب مبالغ كبيرة ، مقابل تزويجهن ، الأمر الذي لا يستطيع الرجال الشباب تحمله .

ان تخوف السيد هوبيه من مواطن مـــالي شيوعي او محبذ للشيوعية كان جد معبر . فالاشتراكية بجد ذاتها تمنع أمثال هؤلاء الرجال من النوم . وهم مقتنعون ان للاستقلال والاشتراكية معنى واحداً . وهم يضربون لك مثل غينيا وغانا ولا يتلفظون باسم سيكوتوري ونكروما وموديبو كيتا الا بخوف ووجل . اما اليسار فلا يعنيهم مطلقاً ، سواء في أوروبا او في بلادهم . وقـــد تحمس الرئيس سنغور فوصف غي موليه اليسار الفرنسي المتحرر « بانه احمق ما يمكن ان يوجد في هذا العالم . وقد اتهمه بمبالاة الافريقيين . وليس هناك من احد ينكر ان هذا اليسار قد ارتكب اخطاء نفسانية كبيرة تجاه المغرب العربي وتجاه السود . ولكن اكبر اخطائه في نظر المسؤولين السنغاليين انه نظر بعين الحذر الى نتائج انتخابات سنة ١٩٦٠ عندما فاز حزب سنغور بـ ٩٩٪ من الاصوات ، وانه لم يعتبر كلمات المسؤولين السنغاليين كلاماً منزلاً ، بمناسبة انفصال السوذان عن اتحاد مالي ، بعد شهر من الانتخابات (١) .

---

(١) يعتبر المسؤولون السنغاليون من اشد الافريقيين ميلا للاستعمار . وقد كانوا السبب في انشقاق اتحاد مالي في تموز سنة ١٩٦٠ .

ان رجال الامس يعجبون بفيليكس هوفويه - بوانيي . وهـذا طبيعي . انه يمثل لهذه الطبقة الاجتماعية التي تعرف انها محكوم عليها في المستقبل . انهم يحسون بالتضامن معه ، ليس لانه استطاع ان يحفظ النظام في جمهوريته ، بل لانه اعتقل ثمانماية موظف بتهمة ابداء آرائهم . وقد اثبت ليوبولد سنغور انه يملك الكثير من الصرامة . وقد كنت في دكار عندما اوقف بعض النقابيين توقيفاً احتياطياً ليمنع قيام احد الاضرابات . ولكن الدكتور هوفويه بوانيي ، يمثل اكثر من زميله سنغور واحداً من رجال الامس هؤلاء .

لقد ولد عام ١٩٠٥ في يوموسو كرو وهو ينتمي الى عائلة رؤساء وقد ترأس عائلته وهو بعد في الخامسة من عمره . فقد قتل عمه كواسي نغو ، رئيس سكان اكوية من قبل شخص يـدعى الينغيا ، لم يغفر له مقتل اخيه في الانتفاضة التي قامت سنة ١٩٠٩ ضد الافرنسيين ، وقد ساعدهم نغو في احتلال بلاده . وهو كواحد من رجال الامس ، تلقى علومه الابتدائيـة في مدرسة يوموسو كرو ، وفي مدرسة بينجرفيل الاعدادية قبل ان يقبل في دار المعلمين وليم بونتي ، في جزيرة غوريا السنغالية ، ثم في كلية الطب في دكار . وهو يثير اطمئنانهم بشعاره الذي يمكن ان يلخص : « اغتنوا » . وهو لا يقصر في هذا ، بقدر ما تسمح له الانظمة التي اوجدت لمالأة الاوروبيين المستوطنين .

انه شخصية صافية توحي لهم بالثقة ، فقد مارس هـذا الطبيب مهنته بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٤٠ في خدمة المعونة الطبية قبل ان يعين رئيس مقاطعة . ثم ترك الطب ليصبح صاحب مزرعة ... وهو على الصعيد

السياسي ، لم يظهر الا في مرحلة متأخرة . لقد بدأ الناس يسمعون عنه في سنة ١٩٤٤ عندما ساهم في تأسيس النقابة الزراعية الافريقية في شاطىء العاج ، وقد اصبح امين سرها ثم رئيسها . وكان الامر يتعلق بانقاذ اطلال المزارع المحلية باجبار الفرنسيين على التخلي عن مصادرتهم للعمال الزراعين ، وإعطاء الآلاف من العمال الاجباريين عشرين فرنكاً افريقياً بدلاً من ٣,٥ فرنكات . ولكنه مع ذلك لم يتخاصم مع المتروبول . ولم يترك عملياً قصر بوربون منذ انتخابه نائباً في المجلس التأسيسي في باريس حتى ٧ آب سنة ١٩٦٠ ، وهو تاريخ اعلان استقلال شاطيء العاج ..

ولكن اغرب ما في الامر الاصرار الذي كان الدكتور هوفويه يرفض به هذا الاستقلال المخيف ، وقد اعترف ايضاً عام ١٩٥٨ دون حرج بهذا في تصريح القاه في ملعب ابيجان الرياضي : « ... لقد رفضنا عام ١٩٤٦ في باماكو هذا الاستقلال المعجزة ، وناديناً بسياسة التعاون الاخوي مع فرنسا ... » واضاف في مقطع آخر من الحديث نفسه : « ... كذلك ، نحن الحق ، نحن اعضاء الحزب الديمقراطي الافريقي ، الذين ناضلنا في سبيل العدالة في بلدنا ، في سبيل المساواة بين الناس ، في سبيل التفاهم بين البيض والسود ، نحن اعضاء الحزب الديموقراطي الافريقي ، الذين يتيح نضالهم اليوم لهؤلاء المتشدقين بالاستقلال مثلنا الحق بان نقول دون اي ضعف ، ونحن نعي المصالح الدائمة لافريقيا الفتية والقديمة ، ان الاستقلال الحقيقي هو الاستقلال الذي نتدافع عنه سوية مع مستعمرينا القدامى .. »

.. هذه قطعة جميلة من الأدب الغنائي ، ولكنها كما يظهر ، لا تقنع

هؤلاء الطلاب الافريقيين الذين التقيت بهم في باريس ، والذين كانوا يظهرون تعجبهم خصوصاً للتناقض بين هذا الاستقلال الحقيقي والدفاع المشترك مع المستعمرين القدامى ! ولكن على الاقل ، كان هوفويه منطقياً مع نفسه ، فقد كان يظن عام ١٩٥٩ ، ان مواطنيه « يسبّحون بحمد الجنرال ديغول الذي اعطاهم بسرعة ادارة شؤونهم الخاصـــة بكاملها ، ومساهمتهم على قدم المساواة مـــع فرنسا في ادارة المصالح المشتركة ... » . وقد صرح قبل شهر من الاستقلال قائلاً ايضاً : « لقد تمنينا ان نقيم مع فرنسا ، الى وقت ما ، اتحاداً فدرالياً ... »

وغالبية مواطني شاطىء العاج ، كالأكثرية الافريقية الساحقـة ، لا تغذي نزعات الاتحـــاد هذه ، وكان لا بد له من التعود على تحرر سياسي كان يضعه امام مشاكل نفسانية وانسانية خطيرة ، دون ان نتكلم عن المنازعات السياسية . لقد كان عليه ان يهدىء الشباب المتعطشين الذين كان يطلق عليهم باحتقار التقدميين ، تماماً مثل سنغور الذي وصف في مقابلته معي ، المثقفين بانهم معارضة الصالونات ؛ وان يطمئن الذين في عمره ويعطيهم الدلائل . وقد بذل قصارى جهده بعبـــارات ، كالتي وردت في الخطاب الذي القاه يوم اعلان الاستقلال : « ليس هناك اي عار في كوننا كنا مستعمرين . »

كلا طبعاً . فقليل من شعوب الأرض ، استطاع تجنب الاستعمار في احدى مراحل حياته . فبالنسبة لرجال كالمدرس ومدير الاشغال العامة ، كان استمرار هذا الوضع يثير اطمئنانهم ويلاقي صدى حلواً في نفوسهم . فاذا لم يكن من العار ان يكون المرء مستعمراً ، فليس من العـــار ان يندم على الاستعمار وتشريعاته واساليبه ، والتشبه

به والانعزال عن الأجيال الفتية المختلفة .

ان الرجال الذين تتراوح اعمارهم بين الخمسين والسبعين ، لا يهدفون الى مجرد المحافظة على مزارعهم وقطعانهم والقابهم ، انهم ليسوا مجرد تجار يريدون الاحتفاظ بارباحهم ،لان الاستقلال الذي انتزع من الافرنسيين بعد طول نضال ، يجعلهم نوعاً جديداً ممن لا وطن لهم . انهم ليسوا افريقيين وليسوا فرنسيين . ان احلى ذكريات صباهم تدور في اطار احياء باريس المختلفة ومدن فرنسا الاخرى ، او على الاقل في اطار مؤسسات التعليم التي انشأها الفرنسيون على الارض الافريقية . انهم يتنشقون فيها ، احياناً ، عبير فرنسا. اما الآن فانهم يشعرون بالاختناق كلما اضمحلت تلك المؤسسات .

وبديهي انهم يعرفون تماماً ان اجدادهم لم يكونوا غاليين . (١) ولكن صلاتهم باجدادهم تراخت كثيراً . انهم لا يحسون بالعار لأنهم كانوا مستعمرين . ولكن المستعمرين كانوا يحاولون ،عن قصد او غير قصد، ان يشعروهم بالعار من كل ما يختلف عن نمط حياة الاوروبيين دون ان يشعروهم بذلك . ان المتحدرين من صلبهم هم الذين يتعلقون بعادات وتقاليد الاجداد . فالسيد ليباله ، تماماً كالسيد دمباديالو ، لا يلبسان مطلقاً الملابس الاوروبية . وهما يحترمان كثيراً تعاليم الدين الاسلامي . (وقد تناولت الطعام مرة، في منزل مدير الاشغال العامة ، في زاوية من البهو . وقد قدمت الطعام لي زوجته الصموتة البشوشة ، لان المرأة لا يجب ان تأكل في حضرة الرجال . وبعد قليل اقترب احد عماله مني وهو يتجنب بعناية ، التطلع الي ، وقدم لي فناجين الشاي الثلاثة التقليدية) ولكن افريقيا هذه تنزلق بين اصابعهم .

(١) كانت فرنسا تسمى في الازمنة القديمة غاليا La gaule

ان افريقيا الجديدة تضيعهم . كان صاحب البار يتذكر بحسرة ونديم ضواحي باب « كلينيانكور » وصديقته الباريسية . وتذكر احـــد الاطباء بحنين ، احدى مدن فرنسا الوسطى ، حيث امضى خدمتـــه الاجبارية . وفي دكار وابيجان رجال عديدون يجدون طريقهم الى باريس او مونبليه بسهولة اكثر مما يجدونهـــا الى مسقط رؤوسهم . وليوبولد منشغول واحد من هذا النوع ، ولكنه ليس وحيداً . فهـــذا المتخصص في القواعد والمجاز في الآداب ، شاعر الخامسة والخمسين ولد في جوَل ، ولكنه امضى اكثر من نصف عمره في فرنسا . وزوجته من مقاطعة نورماندي ، وقد اخترع كلمة « نيغريتود » *Négritude* وهو يعرّفها كما يلي : « مجموعة القيم التقليدية الافريقية » . ولكنه وجد نفسه مضطراً ليتعلم من جديد « الولف » لغة آبائه ، لان لغته كانت فرنسية . وفي سنة ١٩٣٩ ابان الحرب ، اعتقله الالمان كمحارب فرنسي . اما ابيات شعره ، فرغم اللهجـــة الافريقية ، وبعكس ايمة سيزار وهو شاعر افريقي يكتب بالفرنسية ايضاً ، فانها تحتفظ برنة غامضة ، مأخوذة عن فرلان .

وكانت آخر مرة رأيته فيها في باريس ، بمناسبة المسرح العالمي ، حيث قدمت فرقة سنغالية بعض الرقصات الشعبية وقد شد يومذاك على يد السيد مالرو وزير الثقافة الفرنسي ، وتباحث معه طويلا . وبانت عليه معالم السعادة والرضى . ولم يكن يظهر مرتاحاً بهذا الشكل في مكتبه الرئاسي الكائن في الطابق العلوي من بناية بيضاء يسميها سكان دكار البناية الاداريـــة ، تجمع مختلف مكاتب الوزارات والادارات . وكانت هموم وظيفته التي تلت انفصام اتحاد مالي ، ولا شك من جملة

هذا الاستياء . ومع ذلك فقد خيل الي ان هذا المثقف العصبي الحساس يشعر بسرور اكثر على ضفاف السين منه في السنغال . وقد تحادثت في الأمر مع عدة شخصيات في دكار وكان رأيهم من رايي.

عندما كتب سنغور ديواني شعره الاكثر شهرة : القرابين السوداء، واغنيات الظلام • التي عبر فيها عن الحنين المشبوب نحو افريقيا والتقاليد السوداء ،كان ولا شك صادقاً. ولكن هذه التقاليد تشكل على كل حال ، مفهوماً غامضاً جداً . ان السيد اليون ديوب ، الذي يشرف حالياً على مجلة « الوجود الافريقي » يعرفها : كمجموعة كاملة لقيم الثقافة الأفريقية . » وهذا جد جريء . فكيف يمكن جمع ثقافة هذه القارة التي يتكلم اهلها أكثر من ٢٤٠ لغة ،والتي قطعت ثقافاتها المحلية والمنطقية وشوهت خلال ستمائة سنة ؟ لقد ردد لي سنغور مراراً ما قاله و كتبه ، ان كلمة نيغريتود تفترض قبل كل شيء انفعالية مختصة بالسود ، ومجموعة من الخصائص النفسية السوداء . وهذا ما يزيد الأمر غموضاً. إن خصائص السود النفسية لا تختلف بشكل محسوس عن خصائص الأرمن وأفراد أية مجموعة من الشعوب اضطهدت بسبب عقائدها الدينية والعرقية والاجتماعية ، انها جميعاً تظهر انفعالية زائدة ، سببها الذكريات القاسية التي عاشتها والتي تشكل مبرراً تاماً لها .

والسؤال المهم هو : اية افريقيا يؤمن بها ؟ انني واثقة انها لا تنحصر في مقاطعة « فولاك » حيث خلق . ان دكار ، عاصمة جمهوريته، ليست مدينة افريقية صرفة . انها مدينة نشيطة حديثة ليس لها طابع محدد تغلب عليه البشاعة . أما ساحة « البروبته » التي تدعى ايضاً ساحة كولبير ، وهي مركز دكار الجغرافي والاجتماعي ، فلا تختلف في شيء

عن ساحات ليون وكازابلنكا . أما محيطها فأشبه بمحيط مارسيليا ، ولكنه لا يوحي بأي شبه مع بقية المدن الافريقية كناكري وبورسودان واكرا . انني أخشى أن لا تشابه أفريقيا سنغور الا اورشليم السماوية بالنسبة للمسيحيين .

ولكن انتماءه لافريقيا لم يمنعه على كل حال من دعوة ثلاثة اوروبيين مقابل كل افريقي ، في الحفلة التي اقامها في قصره في ١٣ تشرين الثاني عام ١٩٦٠ احتفاء برئيس جمهورية مدغشقر والسيدة تسيرانانا ، خلال زيارتهما الرسمية لدكار . انني لم ار في حياتي اكبر من هذه المجموعة من الموظفين والشخصيات الدينية الفرنسية في حفلة واحدة ، ولم استطع تصديق ما أراه . وقد بان لي هذا الامر جد غريب لدرجة انني استعلمت في اليوم التالي من امينة سر السيد بيار سنغور ، شقيق ليوبولد ، ورئيس التشريفات ، وقد اكدت لي ان ليس في الامر اي خطأ ، وانه ليس الاول من نوعه . ففي كل احتفال من هذا النوع يكون عدد المدعوين الافريقيين نصف عدد المدعوين البيض .

وهذا ما يسمى عادة سوء التصرف . ذلك ان تصرفات كهذه تتخذ طابعاً حقيراً في افريقيا التي تبحث عن شخصيتها حيث تظهر دائماً نزعات واحقاد وعواطف لا يفهمها الاجنبي الذي لم يألف بعد هذه المنطقة من العالم . فكثير من الاشخاص في فرنسا يجهل مثلاً او لا يتذكر ان منطقة الرأس الاخضر Cap-vert قد هدد ، ابان استفتاء سنة ١٩٥٨ بالانفصال عن السنغال اذا صوت السنغاليون بالنفي . وهذه المنطقة « الرأس الاخضر » ليست هي نفسها التي يحكمها البرتغاليون في غرب السنغال ، بل هي تلال على ابواب دكار تسكنها قبضة من الصيادين . وهم لا يشعرون

بالاعجاب بالجنرال ديغول ، بل يتذكرون ، على العكس ، ان احد الديرافات (١) قد وقع معاهدة صداقة مع احد الضباط الفرنسيين ، وكان في نيتهم التمسك بها رغم كل شيء .

ويشعر الشبان بالاسى عندما يلاحظون ان دكار ، او ابيجان ، متأثرة بفرنسا اكثر من اي وقت مضى ، وهم يعتبرون ان ميول سنغور الاوروبية تشكل عاملاً من عوامل الخداع ، وهم رغم تحبيذهم للزواج بين البيض والسود ، يجدون في زواج سنغور من اوروبية نورماندية سبباً اضافياً يبرر اساهم . وقد شرح لي اكثر من شاب هذه الفكرة قائلاً : « ان الامر ليس مشابهاً بالنسبة لديوب اونديا فهما مسلمان ويستطيعان التزوج بواحدة او اثنتين من الافريقيات ، امـــا الرئيس سنغور فانه كاثوليكي ، وبعد ... » ويتبـع ذلك صمت طويل يقول اشياء كثيرة واذا كان بورقيبة واولد دادا متزوجين من افرنسيتين ، فان هـذا لا يطمئنهم انهم يريدون رئيساً افريقياً او ميالاً لافريقيا قدر الامكان... مع او بدون نيغريتود .

ورجال الامس ، هؤلاء ، وقد حاولت اظهارهم ، يميلون على العكس ، الى انتقاد سنغور على تأقلمه السريـع مـــع افريقيا . وكلمة نعم في الاستفتاء كانت تعني بالنسبة اليهم ابقاء الحال على ما هي عليه . انهم لم يكونوا مستعجلين لنيل الاستقلال . اما موقف سكان الرأس الاخضر فلم يكن بالنسبة لهم مضحكاً على الاطلاق . ومع ذلك فانهم يشعرون ببعض النفور من سنغور . فهو ، معهم او بدونهم ، يمثل اعلى سلطة في وطنهم ، وهم مضطرون لمسايرته . ويسانده اكثرهم بالدرجـة التي يستطيـع فيها ان يحتفظ بالروابط القوية مع فرنسا . فهم يقولون

(١) الديراف : قائد اسطول الصيادين في الرأس الاخضر ، وهي وظيفة وراثية .

لانفسهم ، ان الجيش الفرنسي قد بقي هنـــاك ، بواسطة رجال مثله ومثل مامادو ضيا ، رئيس الوزراء، وان الرساميل الفرنسية لاتزال تتدفق باستمرار . ولكنهما لا يثيران اطمئنانهم ، لانهما ينحنيان امـــام كل الهجومات ، سواء على الصعيد السياسي او الشخصي . وهم يودون ، للحفاظ على مصالحهم ، ان يخلصوهما من ارتباطاتهما المعنوية والعاطفية والثقافية بكل ما هو افريقي .

وهذا هو سبب اعجابهم اللامتناهي بفيليكس هوفويه — بواني . وهم في هـــذا يلحقون بالمستوطنين الاوروبيين القاطنين في السنغال ، وهؤلاء بدورهم لا يخفون تشجيعهم لهم . انه رجل قوي وقد اثبت ذلك . لقد عرف كيف يخلق في ابيجان جواً رائعاً . فالافريقيون والاوروبيون يتبادلون هناك الضحكات ، ولكن ليس دون احقاد قد تعود في بعض الاحيان فتطفو وتظهر في بعض المناسبات . ولكن شاطىء العاج يسير في طريق التصنيـــع بفضل توظيفات اوروبية ، بسرعة اكثر من سرعة تصنيـــع البلدان المجاورة . فالنظام سائد ، واذا كانت بعض الاحاديث قد تكلمت عن أن الدكتور فيليكس تعرض مرتين للموت مسموماً ، فانه لا يخشى في الغد ان يلاقي مصير عمه نغو . بالاضافة الى ان الد اعدائه لا يستطيـــع انتقاده لانه لا يتصرف كافريقي ، فكل دراسته تمت في شاطيء العاج والسنغال ، ولم يضع قدمه على ارض فرنسا الا بعد التحرير ، بعد أن تم انتخابه نائباً، وهو غير متزوج من اوروبية انه لم يقل تلك الجملة الرائعة التي قالها السيد بوغندا في آخر خطاباته ، وهو رئيس اوبنغي شاري ، الذي مات منذ عامين في حادث طائرة، وهو عائد لبلاده : « ... لقد بحثت في حق الاستقلال ؛ لأن هذا الحق يفرض

نفسه على ضميري كانسان ، لأنه يجب القضـــاء على الداء في جذوره ، ولأنه يجب محو اسباب اختلافنا ، ولانه يجب انهـــاء الحرب في الجزائر ... »

لقد رفض السيد هوفويه بواني باستمرار، كما رأينا ، استقلال شاطىء العاج ، كما ان فكرة الوحدة الافريقية أو الاتحاد ، وهي فكرة عزيزة على كل الافريقيين ، وسنغور نفسه يطمح لها رغم ان سياسته لا تساهم في تحقيقها ، هذه الفكرة لا تسره أبداً . وفي المؤتمر الاستثنائي الذي عقده حزبه في ابيجان في ايلول سنة ١٩٥٩ انتهز الفرصة مرة أخرى ليعلن عداءه : « ... ان الانتهازيين من أعضاء حركتنا سينكشفون أو سيكشفون انفسهم . اما الأتحاد الأفريقي أو الوحدة الأفريقية ، وهي الكلمات التي يستخدمونها طوال حياتهم في مؤتمراتهم الغوغائيـــة والصحفية ، والمحاضرات التي يريدون لفت النظر اليها ، فانها ليست الا واجهات . فماذا يريدون ؟ ما هو هدفهم البعيد ؟ وبعد ! الاستقلال الناجز الذي لا يستطيعون المجاهرة به ، مثل سيكوتوري الذي اعلن ان الاستقلال هو هدف النضال الذي يقوم به ... »

والاستقلال الناجز ليس حتماً هدف نضال هوفويه بواني . فالوحدة الأفريقية تخيفه ، وتنزع عن تصرفاته كل القناعات التي يحاول التستر تحتها . لأن اتحاداً يضم بالتدريج كل افريقيا سيضع رجال الماضي وجهاً لوجه مع رجال المستقبل ، مع زملائه القدامى في الحزب الديموقراطي الافريقي الذين تجرأوا على المضي مع التيار المتحرر الجديد مثل نكروما وغيره . وهذا ما سيزيد في زعزعة موقفه .

ويطبق الدكتور هوفويه الآن سياسة يظنها بعيدة النظر ، ولكنها

في الواقع محدودة الأفق . فهو يستند الى الشعار البالي « فرق تسد » ، ويشجع الانقسامات حيث يجدها مناسبة ، ويستعد للانقضاض عندما يرى الفرصة سانحة . ومغامرات الملك اماندوفو الثالث جد معبرة في هذا الموضوع . وقد لاحظت هذا وانا قادمة بطريق البر من مالي في قرية فركسيدوغو على حدود شاطىء العاج . وقد حدث ان الخفير الجمركي ، كان من عائلة امــــاندوفو ، وقد قام المسؤولون بالكثير لاقناعه بترك العاصمة حيث يسكن هو وعائلته منذ سنين طويلة ؛ وقد بقيت زوجته وأولاده هنـــاك . وقد نقل الى فركسيدوغو أبعد نقطة عن ابيجان مقر اجداده .

وقد دعاني الخفير الجمركي ، ليعرفني الى اثنين من مواطنيه ، نفيا معه الى هناك ، وليروي لي تاريخ أهله وملكه . فقد وقع واحد من عائلته المالكة سنة ١٨٤٣ معاهدات صداقة مع فرنسا ايام لويس فيليب ، وقد صدقت هذه المعاهدات سنة ١٨٤٨ لسبب رئيسي هو منع الأنكليز من التمركز في المنطقة . وقد وضع الملك أراضيه تحت تصرف فرنسا دون ان يبيعها لها . وقد وضع ورثاؤه هذه الوثائق في صناديقهم الحديدية ، ولم يفكروا فيها الا سنة ١٩٥٨ عندما جرب ديغول انشاء الاتحاد الفرنسي . وقد احسو بالاهانـــة لأن رئيس الجمهورية الخامسة اتفق مع الدكتور هوفويه بوانيي الذي ينتمي الى قبيلة « بولي » وليس معهم . وهم يعتبرون أنفسهم اسمى مرتبـــة من « البوليين » وبقية القبائل . وفي ٢٣ تشرين الأول سنة ١٩٥٩ أرسل جلالة اماندوفو الثالث وفداً الى باريس ، كلفه باعادة المعاهدات السابقة الى الذاكرة ، وطالب باعادة ممتلكاته . وقد رفض الجنرال ديغول استقبال الموفدين .

وعندها وافق الملك على انشاء حكومة مؤقتة في غانا . فسجنه الدكتور هوفويه بواني في ايار عام ١٩٥٩ . وقد اعترض الملك عندما نظرت قضيته ،وانكر كل صلاحية المحكمة الابيجانية .ولكن القضاة حكموا عليه بالسجن عشرة اعوام ،ثم خفف الحكم في الاستئناف الى خمسة، وهو لا يزال وراء القضبان .

وطبيعي ان شيوخ قبيلته ، رغم المذكرة التي اعلنوا فيها خضوعهم لا يحسون بصداقة حقيقية نحو حكومة شاطىء العاج الحاضرة ورئيسها، وهم ، كالأمير اوينغرا ، يحسون ان حقوقهم قد هضمت .

ورئيس شاطىء العاج الذي لا يثق بالصحفيين لدرجة يرفض معها اية مقابلة ، يلاقي ايضاً معارضة تستند الى اسباب اقل من الاولى اعتماداً على التقاليد . وهو يكتفي في الوقت الحاضر باكتساب الطلاب والمثقفين الشبان الثوريين ،بمنحهم وظائف ذات رواتب كبيرة وسيارات ودارات. وطبيعي ان ينسى الشاب ، لفترة ما ، وهو القادم من باريس ، بعد اربع او خمس سنوات من الدراسة المتواصلة ، والذي يجد نفسه رئيس مصلحة حكومية ، من الطبيعي ان ينسى انه كان يصف في مقاهي الحي اللاتيني « هوفويه بواني وشركاه » بانهم « ناسفو ثورة افريقيا الحقيقية » .

ولكن عدد هؤلاء قليل من جهة ، وما يتبقى يصبح اكثر ثورية واندفاعاً ، ومن جهة اخرى ، تكون مراكزهم سبباً في ابعادهم عن التحسس بمشاكل شعبهم ، وتجعلهم طبقة خاصة لا ترتبط ببقية الفئات الشابة ، وخصوصاً بفئة الذين لا يملكون الامكانيات التي تؤمن لهم تعليماً عالياً ، وهؤلاء هم الاغلبية .

والحزب الافريقي الديموقراطي هو الحزب الوحيد المرخص به في شاطيء العاج ، كما ان حزب الاتحاد السنغالي هو الحزب الوحيد فى السنغال . ولنقل في حديثنا عن هذا الامر ، ان اكثر البلدان الافريقية المستقلة تعتمد نظام الحزب الواحد . اما الصحافة فحكومية او غير موجودة . والحق انني لا ارى كيف يمكن ان تكون الحال على غير ذلك ، في بلاد لم يكن لسكانها اي معلم يشرح لهم واجباتهم وحقوقهم السياسية ، وحيث لا يزال ثلاثة ارباع السكان اميين . فالمعارضة اذن في السنغال وفي شاطيء العـــاج مقسمة . ولكنها لا تلقي السلاح مع ذلك . وهي تحاول ، ضمن جهاز الحزب الواحد ، ببعض النجـــاح ، الوصول الى مراكزه الحسامة وتغيير اتجاهاته .

* * *

رجال الغد

اذا استطاعت افريقيا ذات يوم ان تحتل مكانها اللائق بين الامم ، فان الفضل يعود في ذلك الى افريقيين بلغوا سنة ١٩٦١ سن الخامسة والثلاثين ،ولم يتجاوزوا الخمسين. وقد يلومني البعض لتعلقي بهذه الاعمار والاجيال . وانا مضطرة لذلك لانها قضية مهمة جداً لتفهّم الاحداث والمنازعات في افريقيا . لقد وجدت هذه الفروقات في اوروبا الوقت الكافي للتقارب خصوصاً داخل المنظمات السياسية التي لها ماض عريق طويل ، فعندما ينضم الفرنسي الى الحزب الشيوعي ، يحس بالاحترام نحو اللجنة المركزية سواء خلق بعد الحرب العالمية الاولى او قبلها .وقد يستطيع المناضل الاشتراكي الذي لا يوافق غي موليه الدخول الى الحزب الاشتراكي الموحد ، وهناك يجد اعضاء في عمر والده بل في عمر جده . والانضمام الى الحزب الراديكالي او اتحاد الجمهورية الجديدة لا يتعلق مطلقاً بتاريخ الولادة ، بل يعني الانتماء الى فئة اجتماعية معينة . لقد اصبح هذا في ايامنا الحاضرة حقيقة واقعة ولكنه لم يكن كذلك دائماً، بل لم يكن كذلك بعد سنتين او ثلاث سنوات من التحرير .

ولكنه ليس من قبيل المصادفة ان يكون عمر موديبو كيتا ستاً واربعين سنة ونكروما اثنتين وخمسين . وهذه السن تجعله عميــداً لجميع المسؤولين الشبان في افريقيا ؛ ليس من قبيل الصدفة ان يكون عمر سيكوتوري ستاً وثلاثين سنة، وجاك رابيمَننجرا وهو اليوم وزير الاقتصاد في تاناناريف ،وبقي لسنوات طويــلة اللولب الرئيسي لحزب الوجود الافريقي ، يبلغ من العمر الآن ثماني واربعين سنة . اما دودو غيّه ، وهو المسؤول السنغالي الوحيدالذي اختار مالي بعد انفراط عقد اتحاد مــالي ، فلايزال بعيدا عن الخمسين . اما الشيخ انتا ديوب المع مفكري مبدأ الوحدة الافريقية ، فانه لا يزال في الخامسة والثلاثين .

وهؤلاء الرجال يتمتعون بخاصية مشتركة ، هي انهم جميعاً يساريون، ينسبون انفسهم للاشتراكيــة . واذا اردنا الحق ، نجد ان مفهومهم للاشتراكية بــدائي بعض الأحيان . لقد حدثني موديبو كيتا ودودو غيه ، عن اقتناع تام ، ان مبادىء مــاركس وتعاليم الدين الاسلامي متناسبة تماماً . كما ان الجملة الشهيرة « الدين افيون الشعب » لا تزعجهما باي حال من الأحوال . ان كل واحد حر، بالنسبة لهما ، في ان يعتقد بوجود الاله ، وان يقسم الكنيسة ما شاء ، شرط أن يخضع لمقتضيات الاقتصاد المخطط. رغم أن الاسلام يشكل عقبة أمام تحرر المرأة في نظر رئيس جمهورية مالي، خصوصاً وأن هذا التحرر هو العلاج الوحيد لقلة الأيدي العاملة ، وهو ما تشكو منه كل أفريقيا السوداء . ولكنه قال لي انه يأمل أن يغير رويداً رويداً شعبه ، وهو في أكثريته مسلم ، دون ان يحد من حرية المعتقد . اما الشيخ انتا ديوب ، وهو يصف نفسه بعــالم اجتماعي ومؤرخ ماركسي ،فقد قال لي أن الواقع لا يهمه الا بشكل

محدود .

وقد ظهر الاختلاط نفسه بين كلمتي : الجماعية والشيوعية . وقد اكد لي كثير من الاساتذة والطلاب ان الحياة القبلية قد هيأت شعوبهم لتقبل الشيوعية . وطبيعي ان الامر ليس بهذه البساطة . ولما لم يكن في نيتي ان انطلق هنا في بحث عن الشيوعية ، فأنني أكتفي بالتذكير ان القبائل هي مجموعة انسانية تشكل شعوباً صغيرة ضمن اطار الأمة الواحدة ؛ والقبائل في القارة الأفريقية متنوعة منها المرتبطة باللغة الواحدة أو بالأجداد الخرافيين المشتركين ، ومنها التي تستثمر سوية الأراضي الزراعية والآلات . وليس من الممكن ان نجد اي شبه بينها وبين الكولخوزات السوفياتية أو المصانع الزراعية المدّولة . ولا يمكن اقامة شيوعية الا حيثما توجد البروليتـــاريا ، وهي فئة غير موجودة في كل أفريقيا تقريباً ، باستثناء بعض المراكز الصناعية والتجارية الكبيرة كجوهانسبورغ ونايروبي ودكار .

والحق ان هذا ليس مهماً . فالامر يخصهم وحدهم ، وهم يحلمون باشتراكية افريقية لما تتضح معالمها بعد . (وليس علينا نحن الافرنسيين ان نسدي النصائح لهم في هذا الموضوع) المهم هو ان جميـع الافريقيين يرغبون في الوحدة للخلاص من امثال هوفويه بواني او فولبير يولو ، وللتحرر الناجز من قبضة الاستعمار بشكليه القديم والحديث . وهم يطمحون لهذا الاتحاد بكل قواهم : والطريق التي تقود من الانقسام والتمزيق ، (كما حدث في الكونغو) الى الاتحاد لا تزال طويلة صعبة . فالفكرة الاتحادية تلاقي عقبات جمة في اكتساب فئات لا تزال جاهلة فقيرة متخلفة ،واخرى اصابها اعجابها بالغرب بمركبات وعقد ليس من

السهل التخلص منها .

يجب ان يبدأ العمل اولاً على الصعيد الفكري ؛ ولكي يثق الطالب الكاميروني، الذي يدرس في باريس، بنفسه ، لكي يثق المحرر الصحفي في احدى الجرائد الغينية بنفسه ، لكي يثق الشاعر الغابوني بنفسه ، عليهم ايقاظ تراث عريق قديم لم تكن الكتابة تستعمل لتدوينه ونقله من جيل الى جيل ، كما ان الحفريات الاثرية كانت حتى وقت قريب شبه محالة نظرا للعقبات الطبيعية الهائلة . ومع ذلك فان صديقي الشيخ انتا ديوب ينهمك فيها بكل حماس وثبات . وقد اصدر في السنة الماضية كتاباً صغيرا بعنوان « الاسس الثقافية التقنية الصناعية لدولة افريقيا السوداء المتحدة المستقبلة . » وقد لخص فيه نظرياته المعروضة في كتبه السابقة . وقد اكد ، ضمن ما اكده ان « من المرجح ، ان الشعوب الافريقية الحالية لم تأت اليها من اية قارة اخرى . انها شعوب اصيلة . ان آخر الحفريات تجعل من افريقيا مهد الانسانية ، وتنفي باستمرار النظرية التي تقول ان سكان افريقيا اتوا اليها من مناطق اخرى... » ثم يضيف في مكان آخر : « اننا نعرف الآن ، بواسطة تدابير استخدمت فيها وسائل الراديو كاربون ان مدن زمبابويه الاولى تعود ، على الاقل ، الى القرن الاول للمسيح . فقد وجدت على شاطيء أفريقيا الشرقي قطع نقود رومانية تدل على تجارة مزدهرة ، في مرفأ دنفورد وكذلك في زنجبار ... » وهو يحس بانشراح صدره عندما يردد مقطعاً من رسالة جورج غورفيتش ، وهو استاذ في السوربون ، للمؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود : « لقد اعطت الثقافة الافريقية السوداء للعالم مثلاً عظيماً عن حيويتها ونشاطها . وكل المفاهيم الحياتية والدينية والفلسفية خرجت،

كما اعتقد ، من هذا المتبـع . ولم يكن باستطاعة الفراعنة القدماء ان يقيموا حضارتهم لولا الثقافة الافريقية السوداء ، وهذه الحضارة لم تكن على كل حال الا اسمى مراحل الحضارة الافريقية .

ان الفرضية التي تقول ان افريقيا مهد الحضارة من اجرأ النظريات ، ولكن اية حقيقة علمية لم تأت لتأكيدها ، على حد ما اعرفه . وان اكتشاف بعض قطع النقود الرومانية يعني على الارجح ان بعض التجار غامروا فوصلوا الى زنجبار ودنقورد . بالاضافة الى ان هذا ليس اكيدا، فمن الممكن ان يكون بعض البحارة قد استخدموها كسلع للتبادل، لاننا لا نجد في السواحل الشرقية الافريقية اي أثر آخر للرومان . لقد اكتفى غورفيتش بالتعبير عن ارائه الشخصية . ولسوء الحظ يلاحظ اي مراقب للمخطوطات والرسومات المصرية ان الفراعنة والآلهة والنبلاء بصورة عامة ، كانوا يظهرون بوجوه بيضاء . وكان العبيد والخدم من السود . بالاضافة الى ان المصريين اخترعوا الابجدية الهيروغليفية ، بينما لا نجد ، كما قلنا ، اي اثر لأبجدية افريقية . ومن المعقول اذن ان نتصور ان بعض الحضارات الافريقية نقلت عن الحضـــارة المصرية ، وليس العكس .

ان ديوب لا يهتم كثيراً بهذه التفاصيل ، وله ملء الحق في ذلك . أنه ليس عالماً بقدر مـــا هو داعية . فهذا المدرس في المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء ، وهو الآن تابع لجامعة دكار ، محارب في سبيل أفريقيا المتحدة . انه لا يخترع اسلحة لا يهتم بمدى فعاليتها. ولهذا نجد ان نظرياته ذات تأثير كبير على مثقفي افريقيا السوداء الناطقة بالفرنسية ، بينما هي أقل انتشاراً في القسم الذي كان خاضعاً لسيطرة بريطانيا . وبهذه المناسبة

تقول ان كل وسائل النضال صالحة ، ذلك لان امكانية العمل لا تزال محدودة ، على الصعيد السياسي ، امام رجال الغد هؤلاء .

انهم ، في السنغال ، صامتون منذ ان منعت احزاب المعارضـــة ، وخصوصاً حزب الاستقلال الافريقي ذو الميول الاشتراكية . (وقد منع اعضاؤه سنة ١٩٦٠ من التصويت نتيجة لتلاعب حدث فلم تسجل اسماؤهم في لوائح الناخبين) والوضع مماثل في شاطيء العـــاج . ومن المعبر جداً ان الاقي في مالي دودو غيه السنغالي .

انني لن انسى أبداً محادثاتي في باماكو واكرا مع ذلك الرجل ذي العيون الحزينة والحركات السريعة . كان يناقش على طريقة المراهق . وهو ، كبقية السنغاليين ، يحاول ان يقنع مستمعيه باندفاع وانفعال كان مدهشاً مقنعاً كثير المعلومات ولكنه كان غالباً ما يكون ظالماً . وعندما لم اشاركه ، انا الاوروبية ، بعضاً من افكاره اتهمني بانني مصابة بعقدة التفوق وحب السيطرة ، ولكنه اتاح لي ، اكثر من كثير من التصريحات الرسميـــة ، ان افهم كيف ان الوحدة الافريقية هي بالنسبة لبعض الافريقيين الهدف المعقول الذي يجب الوصول اليه ، والعلاج الوحيد ضد اليأس ، ومن جهة اخرى اننا ، نحن الفرنسيين ، مخطئون في توقع سماع منطق اسلم ، حتى من الافريقيين الذين تخرجوا من معاهدنا وجامعاتنا . ان غيّه ، هو طبيب مثل هوفويه ، ومحرر سابق في جريدة « امة » لا يرى ، مثل موديبو كيتا ، كيف لا يمكن الجمع بين الاسلام والاشتراكية . وهو يستسلم ، مع ثقافته الواسعة ، للعواطف ، اكثر مما يستسلم للبراهين العقلية ، لانه يجد ان هذه العواطف تعبر ، اكثر من هذه البراهين ، عن المشاعر الحقيقية لشعوب افريقيا .

وقد خُدع غيّه الطبيب السياسي والصحفي مرات عديدة . وقــد حدث له هذا في غينيا حيث كان يقطن عند استفتاء سنة ١٩٥٨ ، وكان يحاول آنذاك ان يقنــع سيكوتوري بالاجابة بـ « نعم » لان هذه الاجابة كانت في نظره الحل الانتقالي الوحيد الممكن . ولكنه سرعان ما اعترف بخطئه واثبته . وهو الآن مثال نادر للافريقي المناضل الذي لم يقاوم الاستعمار فحسب، بل الفئات الافريقية الحاكمة . واذا جمعنا الاحكام التي حكم بها لنشاطه السياسي ، وسجن لاجلها ، لكانت المدة التي قضاها وراء القضبان فعلاً تزيد عن ثماني سنوات . وقد اضطر بعد احداث آب سنة ١٩٦٠ (١) الى الهرب من دكار حيث ترك عائلته واولاده والتجأ الى غينيا .

ولنشر في كلامنا الى ان الرئيس سنغور اضطر الى وضــع حرس مسلح بالبنادق الرشاشة حول البيت الذي كانت تقطنه امرأة غيّه، قبل ان يسمح لها بمغادرة البلاد . وهو يرمز الآن في باماكو الى استمرار الاتحاد ، بعد الانفصال الذي لا يستطيــع المواطن المالي ان يصدقه .

وليس من قبيل المصادفة ان تلاقيت مع السيد دودو غيّه في اكرا، بعد عدة اسابيــع من رحيلي عن باماكو . وكان احد اعضاء الوفد المالي الذي دعته حكومة غانا لمناقشة التوقيــع المعتزم لاتفاق اقتصادي وثقافي بين مالي وغينيا وغانا . وكان وجوده في العاصمة الغانيــة ، من وجهة النظر المالية ، طبيعياً فهو من جهة زعيم قسم من الرأي العام السنغالي الذي لم يرض ، كالسودانيين ، عن الاطاحة باتحاد كان الرأي

(١) تاريخ انفصال السودان عن اتحاد مالي تحت تأثير العناصر الميالة للاستعمار الفرنسي في السنغال !

العام الافريقي يعتبره نواة افريقيا المستقبل ، ومن جهة اخرى مناضل لا يكل في سبيل فكرة الوحدة الافريقية . انه يفكر باستمرار في هذا الهدف و كل مجهوداته تدعو له ، وقد اعطاني في قصر الامباسدور ، مقر الحكومة الغانية ، وهيئته تدل على الانتصار ، نسخة من النداء الذي وجهه بالاشتراك مع اصدقائــــه ، الى الصحفيين الافريقيين بعد المؤتمر الدولي الثاني للصحفيين الذي انعقد في بادن في تشرين الاول سنة ١٩٦٠ . وقد اشار في هذا النداء الى ضرورة انشاء « لجنة تعاون تضم جميــع الصحفيين الافريقيين » وتشمل صحفي مدغشقر وجزيرة موريس للتعجيل في توحيد قارتهم . وقد انعقد المؤتمر التأسيسي لهـذه اللجنة في باماكو في بداية شهر آذار من عام ١٩٦١ . ومن المثير ان نلاحظ اولاً ان غيه قد وقّـع النداء عن مالي ، وليس بصفته سنغالياً ، اما بقية الاعضاء فكانوا من الجزائريين الوطنيين ومن الداهومي وغانا وغينيا ومراكش وتونس وزنجبار وجزيرة موريس ومدغشقر . وبهـــــذا اصبح لدينا فكرة اولية عن البلدان الافريقية التي تسير نحو عصر جديد من الوحدة والتعاون .

وبعد وقت قليل ، اصدر غيه مجلة سماها « مالي » كان هو وزملاؤه يدافعون فيها عن مفاهيمهم . وهو يثق بانتصاره ، رغم الصعوبات التي لا يشكل اختلاف اللغات في افريقيا ، العقبة الرئيسية . والشيـخ انتا ديوب يدعو للغة موحدة ، مختارة من اللهجات الافريقية . وغيه ولا شك يؤيد هذا التيار . اما انا فاعتقد ان الاتفاق الحــــالي الذي تمّ بين غانا ومالي وغينيا ، متواضع اكثر ، وواقعي اكثر من ايجاد هذه اللغة ، على الاقل في الوقت الحاضر . وهذا الاتفاق ينص على تعليم الانكليزية

اجبارياً في مدارس غينيا ومالي ، والفرنسية في مدارس غانا ، وبانتظار نتائج هذا الاتفاق ، يلاقي المندوبون الماليون الذين يدعون اللغة الافريقية بعض الصعوبات في التفاهم مع ضيوفهم الغانيون الذين يستخدمون الانكليزية كوسيلة للتعبير ، ما دام الترجمان غير موجود .

وهذه العقبات سهلة بالنسبة لرجال لا يزالون في عمر الشباب ، ذوي عزم وتصميم اكيدين . وهم يعرفون انهم لن يصلوا الى اهدافهم في شهر او سنة ، نظراً لانقسام قارتهم . ولكن الشيء الاكيد هو انهم ليسوا على استعداد للتوقف وسط الطريق . وبالنسبة للسودان ، الذي اصبح جمهورية مالي ، نجح كيتا وزملاؤه في خلق شعور جماعي فاصبح جميع الذين يهتمون بالسياسة ، من بعيد او قريب ، يتمنون ان يعود الاتحاد السابق . وقد اجابني احد المارة وقد استوقفته في الشارع بحجة الاستفسار منه عن طريقي ، ثم تحدثت معه بعد ذلك ، اجابني باخلاص منقطع النظير : « نحن ، كسودانيين لا نعتقد أن الاتحاد المالي قد زال الى الابد ، وشعبنا بانتظار العودة الى الاتحاد . » وقد عبر رئيس قرية ديبا ، في السودان السهلي ، وهو رجل بسيط ، ثقافته محدودة ، عبر عن الرأي نفسه . وكان هذا ايضاً رأي السيد غولوغو مفوض الاستعلامات وقد تحدثت معه عندما كنت في باماكو . وهو مناضل اكثر منه اختصاصي في شؤون الاستعلامات . وقد عدد ، ببعض القسوة ، انتقاداته للغرب بصفة عامة ، ولفرنسا بشكل خاص . وهو يحس عن حق ، بالالم يعصر قلبه بسبب الاساليب التي استعملها اداريونا في السودان الفرنسي السابق ، وبسبب حرب الجزائر والتفجيرات الذرية في ريغان في الصحراء . ولكنه احس براحة نسبية عندما اتينا على ذكر المستقبل . وقد اكد هذا

الرجل الطيب ذو الحركات القاسية : « اننـــا نعمل في سبيل الوحدة الافريقية . » وكانت نظرته عندما قال هذا تشابه نظرة الاشتراكي العريق ، المناضل في اوروبا عندما يتذكر ما حققه بنضاله.

وهذا الحماس العام يسهل تفسيره عندمـــا يرى المرء ويستمع الى موديبو كيتا . وفكرة الوحدة الافريقية لن تجد داعية اقوى منه . ان ماضيه ونشأته السياسية اعداه لها . فقد ولد هذا السوداني في باماكو من اصل سراكولي . كان مدرســـاً ، والجميـع يعرفون ان المدرسين يهتمون بالتطلع الى ما حولهم. وهم، في اكثريتهم ، تقدميون لا محافظون. لقد نشأ كيتا في افريقيا ، في وطنه ، ثم في دار المعلمين « وليم بونتي » في دكار . وهناك نقطة اخرى يجب توجيه الاضواء اليها في حياته وهي ان الذين لقنوه اولى الدروس في السياسة ، كانوا رجالاً يساريين ، عندما كان عضواً في الحزب الديموقراطي السوداني . وقد كان ميدان نشاطه السياسي ينحصر ضمن الاطار السوداني ، وبهذا ايضاً ، تخلص من اغراءات قصر البوربون وباريس . ولنذكر انه كان في عام ١٩٥٠ احد الذين عارضوا بشدة ابتعاد التجمع الديموقراطي الافريقي عن الحزب الشيوعي الافرنسي .

ان كيتا وسنغور يختلفان عن بعضهما اختلاف النهار عن الليل . وقد لاحظت خلال مقابلاتي لرجل الدولة السنغالي الشاعر ، انه كان يتحمس وينفعل ، وانه يلبس الملابس الاوروبية ، ويظهر بمظهر من يمر مروراً عابراً في مكتبه . اما كيتا فقد كان على العكس ، يتمتـع بهدوء لا يتزعزع ، قليل الابتسام ليتجنب كل كلمة او حركة لا فائدة منها . ورغم اللهجة القاسية التي يستعملها راديو باماكو كلما تعرض للسودان — وراديو

دكار ليس اكثر تحفظاً ـ فان كيتا لا يستعمل كلمات تحقر سنغور . وهو يظهر مرارته عندما يشير الى مسؤولية فرنسا في فرط عقد الاتحاد . ولكن موقفه الشخصي لم يتغير . فهو كما اعلنه في المؤتمر الاستثنائي الذي عقده الاتحاد السوداني للتجمع الديموقراطي الافريقي : « انه يتمنى ان يكون الاستقلال بالنسبة لدول افريقيا ، احسن الاحوال في تطورها نحو وحدتها . » وهو يبقى على اقتناعه في ان الاتحاد المالي الذي انفرط لم يكن دون فائدة ، لان الاعتراف الدولي باتحاد مالي قد جعل بعض الدول الافريقية ، التي كانت ترفض الاستقلال تطالب بحقها فيه . » ان موقفه لا يزال كما هو الآن وفي ايلول سنة ١٩٦٠ . اما هدفه فهو دائماً السلام والوحدة الافريقية .

وقد اتى مصرع باتريس لومومبا فاعطى الافريقيين ما كان ينقصهم: بطلاً قومياً ، فوق مستوى جميع القبائل ، هو المساوي الافريقي لجان دارك ، وقد كانوا بحاجة اليه ليخلقوا احساساً بالوحدة لدى جميع الاجناس السوداء . ولم ينتظر الرجل لابس البوبو ، الذي استقبلني في كولوبا ، الحي السكني في باماكو ، لم ينتظر اغتيال الزعيم الكونغولي ليشعر بضرورة هذا الاتحاد مستخدماً كل الاساليب التي تطالها يده للاسراع في تحقيقه ، وقد استقطب هذا الحدث مشاعرهم المؤيـــدة للوحدة .

ويقود الدكتور كوامي نكروما معركة مشابهة . وهو يقدم لنا بعض المشاهد المخيبة للأمل . ويتمتع الدكتور بحس دعائي مرهف ، وغرام شرقي بالالقاب التي لا تختلف عن لقب ملك الملوك وهو لقب امبراطور الحبشة . فقد كان يكتفي في السابق بلقب دكتور في اللاهوت والعلوم

والتربية ، وقد ناله بتفوق من جامعة لنكولن السوداء ، في بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأميركية. ولكنه منذ سنة تقريباً، اصبح يهتم كثيراً لكي لا ينسى أي واحد ان يدعوه « اوساجييفو » Osagyefo وهي كلمة تقارب في معناها كلمة « المحرر » . وهذا الحب للفخفخة ولفت النظر يظهر واضحاً في كل المنشآت التي اقيمت في اكرا منذ الاستقلال سنة ١٩٥٧، فعلى حدود احد احياء العاصمة المسمى كوامي نكروما، وضعت اضواء بالوان العلم الغاني ، تضاء طوال الليل بشكل يستطيع معه الجميع قراءة اسمه من مسافة بعيدة . وان مرأى الشبان يلبسون قمصاناً عليها صورته وتوقيعه أمر أصبح مألوفاً بالنسبة لمن يزور تلك المنطقة من العالم في هذا الأيام . والافريقيون اجمالاً يحبون اظهار ميولهم السياسية على ملابسهم فقد رأيت في اوجميه ، اكثر احياء ابيجان اكتظاظاً بالسكان ، ورأيت النساء تلبس اقمشة عليها صور الجنرال ديغول . وفي باماكو ، يسهل على المواطنين المتحمسين ان يناموا في اسرة تحمل شعار جمهورية مالي، ولكن الاوساجييفو يعرف كيف يستقبل الناس بطريقة تثير خيالهم . وقد اتيحت لي الفرصة ، رغم جنسيتي الفرنسية ، التي لا تعتبر في غانا دلالة على شيء عظيم ، ان ارى مع زملائي الغانيين في قصر الرئاسة الطريقة التي استقبل بها وفداً من شخصيات منطقة كوماسي . فقد انتظر اعضاء الوفد ، بعد ان ادخلهم الى ردهة داخلية احد الحجاب الرسميين خمس دقائق كاملة . ثم فتح حاجب آخر احد الأبواب وظهر نكروما يحيط به امين سره واحد الضباط . وكان يمشي بهدوء وبطء . وقد قدم الوفد له نموذجاً مذهباً هو عبارة عن تصغير شجرة كاكاو ؛ وتقدم كل عضو في الوفد فشد على يده . وعندها

ادخلوا الى القصر .

ترى هل يدل هذا التصرف عن عجرفة لا فائدة منها او عن معرفة بنفسية مواطنيه ؟ الفرضية الثانية اقرب الى الحقيقــة كما اظن لأن كل شعب بحاجة الى معبود قومي . وقد يكون من المعقول ان ابن الجوهري المتواضع الذي تلقى علومه في الولايات المتحدة ، قد فهم هذا. من المعقول جداً ان يكون قد فكر ان من الواجب البدء بايجاد هذا المعبود لتثبيت وتركيز الوعي القومي ، بالاضافــة الى ان الافريقيين على اختلاف بلدانهم يشعرون بميل طبيعي الى الحفلات الملونة والاحداث العامة التي تتحول الى رقصات وشعائر معقدة . ولم يكن من الضروري حرمانهم من هذا الميل بسرعة ، خصوصاً وان الفرنسيين يتقاطرون من كل حدب وصوب لرؤية احدى الملكــات ويتلذذون برؤية الضرائب التي يدفعونها تتحول الى اسهم نارية تشق عنان السمــاء في الاحتفالات .

ورغم كل شيء فان الاوساجييفوا يمسك بغانا طيعة في يديه . وقد انشأ «فرق التعمير » ليناضل ضد البطالة في المراكز السكنيــة ، وليزيد في سرعة انشاء الطرق والمباني والمؤسسات ذات النفع العام . وقد تم بناء مرفأ تيما على بعد عشرين كيلومتراً من العاصمة الغانيـة في مدى خمس سنوات ، واصبح اليوم ينافس فعلاً مرفــأ اكرا ولوميه ، بل وابيجان . ونساء غانا هن النساء الوحيدات اللواتي يتمتعن بحقوق مساوية لحقوق الرجال في كل القارة السوداء . وهن يحتكرن قسماً كبيراً من التجارة وخاصة تجارة الأقمشة ، ويشاركن مشاركة نشيطة في اعمال البلد وجميع المهن ، بل ان مناصب القضاة والصحفيين

مفتوحة امامهن. وغاناهي البلد الافريقي الوحيد الذي رأيت فيه مصنعاً لتركيب السيارات يعمل على احسن ما يرام ويديره الغانيون وحدهم. (وهنا تجدر الاشارة الى ان في افريقيا الناطقة بالانكليزية عدداً لا بأس به من الفنيين والمخططين البعيدي النظر بينما اكتفت فرنسا بانجاب المثقفين والادباء. وهذا يعود الى اختلاف طريقة كل من فرنسا وبريطانيا) ولكن اكثرما يجدر ان نشير اليه هو ان الدكتور نكروما ورفاقه الحاكمين قد نجحوا الى حد بعيد في جعل مختلف القبائل تعيش متجاورة دون نزاع او خلافات.

ذلك لأن الوحدة الغانية بالنسبة لنكروما، كما هي بالنسبة للمالي الأول والرئيس الغيني، تقدم للوحدة الافريقية ليس الا. وقد اثبت نكروما في تدخلاته في الامم المتحدة انه لم يبتعد عن هذه الطريق. وقد انشأ، عندما كان يدرس في جامعة لنكولن، «جمعية الطلاب الافريقيين في الولايات المتحدة وكندا»، ثم لما اصبح في لندن يتابع دروسه، استمر في نضاله من اجل افريقيا موحدة، وشغل منصب امين سر المؤتمر الافريقي الوحدوي. وكانت منشوراته وكتبه، التي نشرها قبل الاستقلال تنتشر سراً في ما كان لا يزال يسمى بشاطىء العاج، وقد كان فيها، كما في كتبه التي نشرها بعد الاستقلال، يؤكد على ضرورة اتحاد الافريقيين لتهديم آخر آثار الاستعمار. وقد رأس عام ١٩٥٨ في اكرا اول اجتماع عقده رؤساء الدول الافريقية المستقلة لمناقشة القضايا التي تهم بلدانهم وتتعلق بمصيرهم المشترك. وكان هدفه، كما افصح عنه امام البرلمان الغاني في ١٦ كانون الاول سنة ١٩٥٩، الاهتمام بكل افريقيا وليس فقط بالبلدان

المشتركة في المؤتمر . وقد وقع في تشرين الاول سنة ١٩٥٨ اتفاقاً مبدئياً ، بالاشتراك مع الرئيس سيكوتوري ، اعلنا فيه رغبتها بتشكيل اتحاد بين بلديهما يصبح ، بعد موافقة مجلسي البلدين « نواة الاتحاد المستقبل بين دول افريقيا الغربية . » وقد صرح في ٨ آب سنة ١٩٦٠ امام المجلس الوطني لشؤون افريقيا مؤكداً ان : « الامم الافريقية الجديدة ستكون في اول امرها ضعيفة لا قوة لها لنسبة للامم العريقة ، نظراً للظروف التي سبقت الاستقلال . ولكننا نعرف مع ذلك ان الاتحاد الافريقي يشكل واحداً من اقوى الاتحادات في العالم . »

وقد كان رده على احداث الكونغو البلجيكي السابق عنيفاً شديداً لانه يعرف اكثر من غيره ان هذه الاحداث لا تهدد وحدة الكونغو فحسب ، بل الوحدة الافريقية كلها . وهو كدكتور في اللاهوت يحب الكلام ويحسنه . وقد تأخذه الفصاحة والبلاغة احيانا فيتكلم اكثر مما يجب ، وهذا ما اعترف به الصحفيون الغانيون ولكن دون ان ينشروه طبعاً ، عندما اشرت الى هذا الموضوع . وقد عقّدت بعض تصريحاته مهمة لومومبا واصدقائه بدل ان تسهلها . وقد كان عليه ان يساير قليلاً ويدرك حساسية السود . فقد جعلت هجوماته العلنية على هوفويه ، وخصوصاً ابان محاكمة اماندوفو الثالث ، بعض المواطنين في شاطىء العاج يشعرون بالتضامن مع رئيسهم ، رغم انهم لم يكونوا يكفون عن ترديد اعجابهم بمنجزات غانا . ولكن هذا لا يمنع ان الكونغو قد استطاع حتى الآن المحافظة على وحدته ، وان جيزنغا لا يزال حياً وان اللومومبيين لم يلاقوا كلهم مصير قائدهم ، بفضل نكروما وامثاله.

سيكوتوري وموديبوكيتا .

ليس هناك اي شك في ان غانا وغينيا ومالي تشكل ركائز النضال في سبيل الوحدة الافريقية . ولكن هذا لا يمنع ان هناك في شاطىء العاج ، رغم السياسة العرجاء التي تتبعها الحكومة ، رجالاً لا يزالون يناضلون ويدافعون عن هذا المثل الاعلى الذي انطلق منه حزب هوفويه بواني الحاكم . والمحامي جاكوبي من هؤلاء ، وهو لما يبلغ بعد الاربعين من العمر ، فالاتحاد الذي يتشدق به هوفويه اكثر من ديغول ، لا يوحي له بالثقة ، وهو ينادي بهذا دون لبس او ابهام ، ولكن دون ان يستقيل من الحزب الذي انخرط فيه في ساعات تأسيسه الاولى .

ذهبت لمقابلته بعد ظهر احد الايام ، في بيته المتواضع بالنسبة للدارات التي تحتلها شخصيات العهد ، في تريشفيل ، وكان متعباً ، فقد كان عائداً لتوه من المحكمة حيث رافع في احدى القضايا على بعد ثلاثماية كيلومتر من ابيجان . ولكنه مع ذلك ابتسم بلطف عندما سألته : « لماذا تبقى في حزب سياسي اصبحت الآن على غير وفاق معه . » ثم اجابني « لانني اذا ما تركته خنته ، ان الجميع يعرفون انني استقلت من المجلس البلدي الابيجاني لأعبر عن عدم موافقتي على السياسة التي يتبعها هوفويه . وقد غضبت المراجع العليا ، ولكنها رأت انها لا تستطيع شيئاً ضدي ، كأن تضعني في السجن مثلاً ، لانني جد معروف من قبل السكان كواحد من اقدم اعضاء الحزب ، وانا بالفعل لا اريد الخروج من الحزب بسبب ذلك . ان هوفويه اليوم مسيطر على الحزب ، وهو يصدر اوامره للقاعدة بدلاً من ان يتلقى الاوامر منها . اذن فعلينا نحن مخلصي البداية ، ان نحاول اعادة الديموقراطية في الداخل ، وفرض اتجاه

اكثر افريقية عليه » واستنتج ،وهو يشير الى صورة امرأة شابة موضوعة على مكتبه ، « اما انا فانهم لا يستطيعون اتهامي بالتعصب او بالعنصرية ، فقد تزوجت اوروبية ، ونحن على اتم وفاق ، والجميع يعرفون هذا .» وطبيعي ان المرأة الاوروبية بالنسبة الى جاكوبي ، لا تشكل عاملاً محرجاً كما هي بالنسبة لرئيس جمهورية كسنغور ، فجاكوبي اقل عمراً ليحس بالازدواجية التي تمزق الآخر ، وقضاء بضع سنين في فرنسا لم يمنعه من الشعور بانه افريقي حتى العظام . واذا وضعنا عاطفته نحو زوجته على حدة ، فاننا لا نجد اي رابط عاطفي يشده لاوروبا .

ورجال المستقبل هؤلاء يظهرون واقعية عندما لا يوافقون ، كجاكوبي ، على ان النظام الرئاسي هو النظام الوحيد الممكن تطبيقه في الوقت الحاضر في بلد لا تزال اكثرية سكانه امية ، لا تملك الا القليل من الحس السياسي البدائي . وقد فهموا الآن ان قيام احزاب معارضة في هذا النظام عمل خيالي ، لان الرئيس يملك صلاحية منعها ، بين عشية وضحاها ، دون استئذان احد . ان جاكوبي اذن على حق ، وكذلك اعضاء حزب الاستقلال الافريقي السنغالي ، الذين انضموا الى الحزب السنغالي الحاكم بعد ان اصبحت منظمته سرية . فحيث لا يوجد الا حزب واحد ، يظل الدخول اليه الوسيلة الوحيدة لتطهيره وتوجيهه .

ان غد افريقيا قريب اذا نجح رجال المستقبل هؤلاء في فرض انفسهم في جميع انحاء القارة ، كما استطاعوا ان يفرضوا انفسهم في غانا ومالي وغينيا ، وقد اتت الآن نيجيريا لتنضم اليهم بملايينها الخمسة والثلاثين ومساحاتها الشاسعة . ومن المثير ان نلاحظ ان الدول التي تدعو للوحدة الافريقية هي انشط الدول الافريقية المستقلة واكثرها ديناميكية . ولا يستطيع

المرء عندما يرى المعسكر القوي الذي تشكله ،والذي يتقوى يوماً عن يوم ، لا يستطيع الا ان يشعر بالاستخفاف بالاتفاق المشؤوم الذي اخترعته دوائر باريس الحكومية بالاشتراك مع الدكتور هوفويه بواني؛ ولا يجهل امثال جاكوبي ان هذا الاتفاق يهدف الى الهاء الشعب عن الوحدة الحقيقية . وهم يعتقدون انه سيزول عاجلاً او آجلاً . ان هذا الجيل الجديد الذي لم يعد يعتقد بالاتحادات المطبوخة في باريس ، قد يتوصل الى تصفية جميع العقبات التي تعترض انشاء اتحاد يضم كل افريقيا . ومن الضروري طبعاً ان يساعده في ذلك الجيل الذي يليه . ولكن اين هم شبان افريقيا وشاباتها الذين تتراوح اعمارهم بين العشرين والثلاثين ؟

***

الشباب الافريقي

ان الحكم على ردود الفعل عند الشباب الافريقي في المستقبل القريب او البعيد لا يظهر اكثر حصافة من التحدث عن افريقيا ككل . وهكذا فان من المعقول ان نتكلم عن الشباب المالي الغيني مثلا ... ان صعوبة التطرق الى الشباب الافريقي تشابه صعوبـــة اعطاء صورة عن القارة الافريقية بواسطة عدة تعاريف عامة. ففي داخل كل بلد ، نجد ان اطلاق الأحكام العامة شيء خطر . ان هذه المنطقة تشكو نقصاً في السكان نظراً لمساحاتها الشاسعة ؛ ليس فقط لأن المسافات بعيدة ، بل لأنها غالباً ما تكون صعبة الاجتياز لانعدام الطرق ، وفي بعض الاحيان لعدم وجود محطات مأهولة على طول الطريق . فقليل من الفلاحين وسكان المدن الافريقيين يملك المال اللازم ليستخدم الطائرة. وهذا ما يجعلهم منعزلين انعزالا شبه تام ويمنع كذلك توحيد السكان . ان القمر ليس ابعد من العاصمة اديس ابابا بالنسبة لسكان وسط الحبشة ، الذين لم يسمعوا على الأغلب باسمها . فهم يبعدون عنها مسافة تسعمائة كيلو متر ، ولكن اربعة قرون كاملة تفصلهم عنها من ناحية الرقي . كما نجد ان

كثيراً من سكان منطقة « كايس » القرويين لم يضعوا اقدامهم في باماكو .
وذلك لسبب وجيه ، هو ان القطار يمر مرة واحدة في الاسبوع بين باماكو وكايس وكذلك الطائرة ، وليس هنـــاك من وسيلة اخرى للانتقال بين المدينتين .

وكذلك ليس بالامكان تكوين فكرة واضحة عن هذا الوضع ، من الاحتكاك ببعض الافريقيين الموجودين في باريس ولندن ، او في اية مدينة من مدن اوروبا . فالأنسان لا يتصرف خارج بلاده كما يتصرف فيها . وهذا صحيح بالنسبة للسويدي او الاميركي . وهو صحيح اكثر بالنسبة للاسيوي او الافريقي .

ان الشبان الذين لا يجالسون ، في طعامهم ، النساء على طاولة واحدة في بيوتهم الافريقية ، ويعتبرون ان المرأة كائن منحط ، هؤلاء الشبان يكتشفون في سان جرمان ده بري ، او في حي بوب اللندني ، فتيات لا يقلون عنهم ثقافة ، ولا يرضين معاملة لا تعترف بالمساواة بين الجنسين .
وهم يقومون بهذا الدور بحماس ، كما يتبعون النمط الاوروبي في الزي .
ولكن هذا لا يمنعهم ، عندما يعودون الى موطنهم ، من ارتداء الازياء التقليدية .

وقد اقنعتني زيارة واحدة لاحد مراكز التجمع السكني في دكار ان علاقاتهم باخوانهم وامهاتهم وزوجاتهم لم تتغير بعد ان امضوا فترات طويلة في اوروبا .

وقد رافقت احد اصدقائي في زيارة لاخت زوجته ولدت حديثاً .
ورأيناها تتقاسم الغرفة مع ثلاث نساء اخريات كانت كل واحدة منهن تضع مولودها في سرير صغير الى جانبها . وبعد ان حيّا الازواج الامهات باختصار ، بعد ان وصلوا في ساعات الزيارة الرسمية ، اهتموا طويلاً

بالاطفال ، وامضوا بقية الوقت في حديث مع بعضهم بعضاً ، دون ان يوجهوا الحديث الى النساء . وبان انهن لم يجدن في ذلك شيئاً غريباً .ومن الضروري ان نشير هنا الى ان هؤلاء الرجال كانوا من الذين يطلق عليهم الاوروبيون المستوطنون لقب « المتطورين » . والتعبير لا لا يعني شيئاً كثيراً ، ولكن البيض العاجزين عن التخلي عن كبريائهم ، يستخدمونه للاشارة الى السود الذين تلقوا ثقافة غربية ، في افريقيا او في اوروبا ، والذين تبنوا طريقة معيشتهم في اللبس والسكن .

ولنضف ان هؤلاء الطلاب والمتمرنين في اوروبا يستفيدون منه ليتعاطوا بعض ما تمنعه تقاليدهم المحلية ، وعلى الاخص المشروبات الكحولية . فعندما يعودون الى السنغال والسودان (مالي) يتلذذون بالوسكي والبيرة ، ولكن ببعض التستر . واخيراً يساهم التغير الكبير ، الذي ينتظر البعض بعد عودتهم ، في جعل الشاب الذي يصل الى دكار او ابيجان مختلفاً عن رفيقه الذي يترك رفاقه على الضفة اليسرى .

وانا افكر هنا في س ... ، شاب عمره ثلاثون سنة . فقد ارسل الى باريس في بعثة ليدرس فن الصحافة الاذاعية ، وقد عمل هناك بجد واجتهاد . كان خدوماً هادئاً ، له صداقات عديدة ، وخصوصاً مع الفتيات . وقد سره كثيراً اعلان اتحاد مالي طبعاً . ولكنه مع ذلك لم يظهر اية وطنية عدائية . وانا اعتقد ان السياسة لم تكن تهمه في قليل او كثير . وفي حزيران سنة ١٩٦٠ عاد الى دكار واستدعاه وزير الاستعلامات الاتحادي . وبعد عدة اشهر رأيته مرة اخرى . وكان قد اصبح شخصية مهمة ، ليس في الاستعلامات او الاذاعة ، بل في وزارة

الداخلية . كان عصبياً مرهقاً ،تعود على اصدار الاوامر لسائقه وحجابه، يرد باجابات مبهمة على اسئلتي المباشره المتعلقة بمسؤولية الحكومة في احداث آب سنة ١٩٦٠ . وبعد ان يئس من اقناعي ، اعطاني التصريح الرسمي الذي نشره الناطق بلسان سنغور . ولم يجد من المفيد ان يقدمني لامرأته عندما صادفته معها ، وهو الذي كان يجد من المفيد تبادل وجهات النظر مع الجنس الآخر . والحق انها لزمت حدها فابتعدت بتواضع ولم تنبس بكلمة .

ويجب ان لا يفهم من هذا ان س ... هو مثال المثقف السنغالي الشاب . ان هذا ليس صحيحاً البتة . وحالته ليست وحيدة ، ولكنه يثبت ان الافريقي في باريس هو غيره في بلده افريقيا . وهو يؤكد ايضا ما سبق وقدمته حول السياسة التي يتبعها سنغور وهوفويه بواني ليفرطوا عقد المعارضة بين الشبان ، على الاقل جزئياً .

ان الاحكام العامة تقود للخطأ . قد يقول قائـــل يدعي انه يعرف افريقيا جيداً مؤكداً : « آه ! السنغاليون ! اجل . انهم كسولون اتكاليون . » فهذا الحكم ليس ادق من حكم الشخص الانكليزي الذي يمر في « دياب » (١) فيرى امرأة شقراء ، فيستخلص ان كل الفرنسيات شقراوات . قد يظن المرء وهو في دكار انه في مارسيليا او في نابولي . فلا يمكن ان يُلاحظ في شوارعها كثرة المراهقين الذين يتبخترون دون هدف محدد . والحق انهم لا يتنزهون عن كسل ، بل لقلة الاعمال . ان اكثر من ثلث سكان دكار عاطلون عن العمـل . والنسبة اكبر في سان لويس في السنغال ، بانتظار نجاح الحكومة في انشاء المصانع ،وتجفيف

(١ حد مدن تما

المستنقعات التي تجعل الاراضي غير صالحة للزراعة ومركزاً لانتشار الاوبئة . ولنعترف ان المسؤولين مهتمون جدياً بهذا الامر .

لقد لاحظت في الوزارات، ومكاتب البريد ، وبعض الاماكن العامة الاخرى ، بعض الاستخفاف ، او بالاحرى تهاوناً لم الاحظه في مالي وغانا . ولنشر الى ان هذا قد يكون كسلاً ، واذا كان الامر كذلك ، فان هذا ليس وقفاً على الشباب وحدهم ، فقد لاحظت هذه اللامبالاة عند كثير من الذين لما يبلغوا الثلاثين من العمر بعد . وه ... احسن مثل على ذلك . ان عمره خمس وعشرون سنة ، ولكنه بوجهه الصبوح الناعم لا يظهر في العشرين . وكان عمله الرئيسي يتلخص في التنزه من مكتب الى وزارة ، وله في كل مكان علاقات ومعارف . كان يعرف كل شيء ولا يهتم باي شيء . والموضوعية تضطرني الى القول اني منـــذ اللحظة التي تعرفت فيها اليه ، بعد عشر دقائق من رسو الباخرة التي اقلتني الى دكار، كان يحس باحزان الحب ويتألم منه . واذا وضعنا هذا جانبـــاً ، فانني استطيـع ان اقول انه لا يحس بان اي شيء يستحق اهتمامه .

وكان الاستقلال الذي ناله وطنه حديثاً ، لا يثير انفعاله على الاطلاق. وكان يسخر ، دون كلل ، من التجارب الحاسمة التي تجتازها افريقيامنذ نهاية الحرب العالمية الثانية . لقد كان يطمح ، كما صرح لي ، الى تجنب كل عمل دائم مفيد . كان والده يعطيه « خرجيته » التي كانت تكفيه لشراء تبغه والتردد احيانـاً على احـد المقاهي او المشارب . وكان يكتفي بذلك معتقداً ان والده لم يكن يؤدي له الا واجبه الاول . كان يردد لي باستمرار : « ان ارباب العائلات عندنا ، مكلفون بتغذية اولادهم . »

وه ... ليس وحيداً في نوعه طبعاً . فاذا تجاهلنا ان هـذه الفئة من الشباب موجودة في كل انحاء العالم ، فاننا نستطيـع ان نصف ه ... بانه النتاج الصرف للاستعمار . لان ثلاثماية عام من الاستعمار تكفي لتنمية السلبية والاتكالية في نفوس المستعمَرين . والفرنسيون يستعمرون السنغال منذ سنة ١٦٣٥ ! اما السودانيون فانهم يتمتعون بسمعة النشاط والجد ، بمجموعهم باستثناء بعض الشواذات . وهذا يعود الى ان السودان رغم ثرواته الكامنة ، بلد فقير ، ولان الاستعمار لم يدخله الا عـام ١٨٧٦ . والفقر يضطر الناس للبحث دون كلل عن الوسائل التي تبقيهم على قيد الحياة ، بالاضافة الى ان استعماراً لم يدم اكثر من مئة سنة ، لا يكفي تماماً لتشويه خصائص التجمعات الانسانية .

لقد اشرت الى نديا ليماله ، المدرس المتقاعد ومدير مدرسة في سان لويس . ان صهره يقارب في العمر السيد ه ... ولكنه على عكس هذا الاخير ، كان متزوجاً ورب عائلة ، وموظفاً في احدى الادارات . كان كوالد زوجته وعمه النائب ، وهو فخور جداً به ، كان عضواً في الحزب ، وهو يعلق عليه آمالاً كباراً ، ولا يتحدث عنه الا باحترام كبير ، بالاضافة الى انه كان الشخص الوحيد الذي ابدى لي ارتياحه لانفصام اتحاد مالي . كان مقتنعاً ، وليس بامكان اية قوة ان تزيل قناعته ، بأن السودان يتهيأ لغزو السنغال . وقد اعترف لي اخيراً بأنه كان يتمنى ان يكون بين العشرة آلاف رجل الذين أتوا الى دكار ليدافعوا عنها ضد اي هجوم سوداني . وقد قال لي شارحاً : « ولكن لسوء حظي ، لم يعد هناك مكان لي في الشاحنات التي نقلتهم » .

وليس هناك ادنى شك في ان الدعاوة الحكومية المركزّة لم تقصر

في اقناع قسم كبير من السكان ، وهم في غالبيتهم اميون، في الوقت الذي فرضت الاقامـــة الجبرية على موديبو كيتا . لقد خشي كثير من القرويين والمزارعين المسالمين الذين تذكروا الحروب والغـــارات الماضية ، خشي هؤلاء على ارواحهم واملاكهم من الاشقاء الذين اصبحوا اعداء . ان ابن اخ النائب وصهر المدرس يشكل في رأيي رجلاً من رجال الماضي ، رغم سنيـه الخمس والعشرين ، وبالتالي صورة نادرة في افريقيا، اكثر مما هو مثل خاص عن الموجة الجديدة التي تجتاح السنغال.

ونحن نلاحظ هذا ، فمن الصعب جداً حصر هذه الموجة الجديدة في تعريف او تعريفين معقولين . وبكل صراحة اقول انني اعجز عن ذلك . ان اقول ان جميع الافريقيين يحبون الرقص ، سخافة لا تلقي ضوءاً على اي شيء ، تماماً كمعرفة خصائص الايطاليين من الصوت الجميل الذي يتمتع غالبهم به . فالنفس الايطالية كلمة دون معنى مثل اية كلمة عن نفوس الشعوب ، حتى ولو كانت موجودة ، فانها لا يمكن ان تفسر بمقطع غنائي جميل . ان المرح والروح الاجتماعية وانفتاح السنغالي ليست مجرد اختراعات . فالراقصون الذين يملأون كل يوم سبت شوارع بامـــاكو ، والراقصون الذين يتسابقون الى مراقص اكرا ، لا يستسلمون لافراحهم ومرحهم اكثر من الراقصين في « مدينا » الضاحية الفقيرة لعاصمة السنغال . وبصورة عامـــة ، شعرت بسهولة اكثر في التحدث الى السنغاليين مني الى السوادنيين وهم اكثر انطواء وحذراً. ولكننا ، نحن الاوروبيين بصورة عامة والفرنسيين بشكل خاص ، نميل ، اكثر من اللازم ، الى وصف من يميل الينا او من يتظاهر بالميل الينا من الافريقيين ، بسرعة البداهة وسرعة الفهم . ومن التجني ان نصف الماليين بالشك الوراثي لأنهم يظهرون حذرهم من التحدث الى

صحفية فرنسية . فهذا الحذر طبيعي جداً بعد الدور الذي لعبته فرنسا في انهاء اول محاولة لا بأس بها لتكوين اتحاد افريقي .

ان ب ... وهو فني Technicien في اذاعـــة السنغال ، كغالبية اخوتـــه في الجنس والوطن ، يرقص باستمرار . وهو كافريقي وسنغالي ، يعد من اكثر الناس انطوائية . ولا شك ان نشأته وطباعه من اسباب انطوائيته ، ولكن من جملة الاسباب هو ان معظم اصدقائه الحميمين ينتمون او يحبذون حزب الاستقلال الافريقي الذي حلــــه سنغور .

وهو بالذات لا يهتم كثيراً بالسياسة . كما ان حزب الاتحـــاد السنغالي الحاكم لا يجتذبه . بالاضافة الى ان الانخراط في هذا الميدان ليس عملا عاقلا بالنسبة لمستخدم في مؤسسة كالاذاعة . ولكن تلميحاته البسيطة لا تترك اي مجال للشك في ميوله . وليس في هذا أية غرابة ، رغم نشأته التقليدية كفرد من افراد الطبقة الوسطى المسلمة في القارة الافريقية . تلقى ب ... علومه الدينية اولاً ، ثم تردد على مدرسة ابتدائية ،وتابع دراسته الفنية في احدى الكليات ،ثم ذهب اخيراً في بعثة الى باريس حيث تدرب طويلًا في الشركة الاذاعية الفرنسية لما وراء البحار . والشبان الافريقيون عادة لا يجدون، وهم في اوروبا، اصدقاء من احزاب اليمين،فيتجهون نتيجة لذلك نحو الاشتراكيين اوالشيوعيين ، او نحو التقدميين على الاقل ليكملوا ثقافتهم العقائدية .

والشيء الاهم في نظري هو انه ليس مصاباً بما دعاه سنغور وديوب وغيرهما نيغريتود . ان ب ... يحب وطنه طبعاً . وفكرة الابتعاد عنه سنوات متتالية لا تخطر على باله مطلقاً ، اما فكرة كونه الآن مواطناً

في بلادمستقلة فانها تسحره، دون ان تمنعه من التساؤل حول مقدار استقلال المسؤولين في بلاده عن فرنسا والغرب . ولكنه متحرر من الحساسية المرضية والحس العدواني المؤلم والكبرياء الناتج عن مركبات النقص التي طالما ألصقت بكل المضطهدين . ان لون بشرته لا يزعجه البتة. ان لديه ، او يعتقد أن لديه بعض الاسباب التي تبرر استيـــاءه ، وهي لا تتعلق بماضيه او بطبقته الاجتماعية .

وانا اريد ان اتحدث ايضاً عن د ... انه مناضـــل حزبي شاب ، والمناضلون الحزبيون اندر، نوعاً ما ، في هذه الدول الحديثة، منها في اممنا العريقة . لقد تكونت طبقات مجتمعنا منذ عشرات السنين ، وقد عرفنا الصراع الطبقي منذ قرون ، اما في افريقيا الحديثة ، فليس هنـاك الا معركة واحدة هي المعركة ضد الاستعمار. ان دودو غيّه وسيكو توري يعرفان ان الاستعمار والرأسمالية هما من صنع طبقة واحدة، وان محاربة الاول هي حرب على الثانية . ولكن الافريقيين الذين لا يزالون يعيشون حياة قبلية يجهلون ذلك . انهم لم يصلوا بعد الى المطاليب التي تتعلق بالاجور والفرص المدفوعة . ان هـــدف ثورتهم الحـالية ليس تدشين عهد « ديكتاتورية البروليتاريا » بل نيل حقهم في ان يعتبروا بشراً . ان ذكريات البطولة بالنسبة لرجال مثـــل غيّه ونكروما هي ذكريات السنين التي امضياها في السجون الفرنسية والانكليزية . امـا اليوم ، فعندما يحكم على د ... بالسجن الانفرادي لنشاطه « الهدام » فان المحكمة ستكون افريقية وسيسجن في زنزانة افريقية. وقد جرب ذلك النقابيون السنغاليون كما جربه الموظفون الذين سجنوا في شاطيء العاج بتهمة ابداء الرأي .

ان د ... يشبه العمال في بقية انحاء العالم . عمره ثمان وعشرون سنة ، ويشغل مركزاً متواضعاً في احدى مصالح التعويضات العائلية في دكار. وهو لاهتمامه بعمله ، يستطيع في وضعه ان يتحسس بشكل قوي بعض المساوىء في الادارة السنغالية الجديدة .

وقد علمت منه ان مبالغ التأمينات ضد البطالة لا توزع الا ثلاثة اشهر ،وان التعويضات العائلية تتوقف عند الطفل السادس . وكان اول سنغالي حدثني دون خوف او مواربة عن التزوير الذي حـــدث في انتخابات حزيران سنة ١٩٦٠ وعن« معركة الحقيقة » التي نظمها الحزب الحاكم في السنغال بعد انفراط اتحاد مالي . وقد تكفل المسؤولون في الحزب ، بواسطة المناورات والاذاعات والخطب في مختلف انحاء البلاد، باظهار « خداع » المسؤولين السودانيين . اما د ... فانه يميل الى حزب التجمع الافريقي مثل ب ...و كثيرين غيره ، كما انه لم يرض عن انتهاء الاتحاد . وهو يكرس كل اوقات فراغه للنشاط السياسي ، داخل جهاز الحزب الحاكم متبعاً ، كغيره من الشباب ، مبدأ تطهير الحزب نظراً لعدم وجود احزاب اخرى . ولكن هذا لا يمنعه على كل حـال من ابقاء احتـكاكه بالمعارضين المعروفين وغيرهم من المتسترين . انني لم اجد عنده اي اثر للامبالاة السنغالية ، بل شيئاً من البساطة نظراً للاطمئنان الذي حدثني به ، انا الصحفية التي لا يكاد يعرفها ، عن ميوله السياسية وآرائه في اوضاع بلاده .

ويجب ان لا ندهش لهذا . فهذا الجيل لا يملك اية تجربة عن المقاومة والسرية ، بعكس الجيل الذي سبقه (وانا اتمنى له ان لا يعيش هـذه

التجربة قريبا !) وبصورة مختصرة ، نستطيع ان نقول ان الشباب السنغالي ينقسم الى معسكرات ثلاثة : نجد في الاول اللامبالين المحافظين السلبيين ، من امثال هـ ... وصهر المدرس العجوز . ونجد في المعسكر الثاني هؤلاء الذين نجحوا قبل ان يبلغوا الخامسة والثلاثين في الوصول الى مركز مريح يرضي غرورهم الشخصي مثل س ... اما المعسكر الثالث فيضم المعارضين والثائرين من امثال ب ... وخصوصاً من امثال د ... وهذا التقسيم ككل تقسيم من هذا النوع ، تعسفي لا ينطبق على الواقع الا بدرجة نسبية وفي المراكز المدينية كدكار . والحكومة ، توجه دعايتها عن قصد ، وبشكل منطقي ، الى شباب الريف القليلي الاطلاع ، وبالتالي الاكثر تأثراً بها. ولذلك فانها تقوم ببعض المبادرات الايجابية في الارياف .

يقوم في دكار مركز لتخريج المتمرنات الريفيات ، تديره السيدة « فال » المستشارة الفنية في وزارة التربية . وعدد المتمرنات فيه لايزال قليلًا ، ولكنهم يأتون من اربعة عشر مكاناً مختلفاً من البلاد. ويستمر التدريب اسبوعين ، وتتلقى فيه الفتيات والنساء دروساً تقارب المستوى المتوسط في مدارس الاقضية عندنا ، ويتعلمن هناك مبادىء الزراعة والصحة الحديثة والخياطة والضرب على الآلة الكاتبة ، اما اللواتي يشعرن بميل نحو التصوير فان بامكانهن ان يتلقين معلومات اولية . وعندما تعود هذه الافواج المتتالية الى قراها ، تقوم بدورها في تعليم ما تلقنته في المركز الى بقية النساء . ولما كان الحزب الحاكم يشرف على المركز بالاضافة الى اشراف وزارة التربية ، فان المتمرنات فيه يتشربن مبادىء

الحزب ، وفي الوقت نفسه ، يحذرن من زواج الاطفال (١) . ان العيب الرئيسي في هذا المركز هو تكاليف التمرين التي تبلغ ٤٠٠ فرنك افريقي في اليوم الواحد للشخص الواحد. وقليل من الفلاحين يستطيع حتى ولو اراد ، ان يصرف هذا المبلغ لتعليم بناته . وهناك في « كيور ماسّار » ،وهي هضبة على بعدعشرين كلم من دكار ،مركزآخر لتدريب الاختصاصيات الريفيات . وهو اكثر اهمية من مركز دكار نظراً لأنه من جهة اولى مجاني ، ومن جهة اخرى بعيد عن السياسة ، واخيراً لأنه يضم عدداً لا بأس به من المتدربات . وقد نظم في سنة ١٩٦٠ ثلاث دورات الاولى من ٢٦ ايلول حتى ٩ تشرين الاول ، وتخرجت فيها ٣٢ متدربة ،والثانية من ١٣ تشرين الاول حتى ٢٩ منه ، وتخرجت فيها ٣٠ متدربة ، والاخيرة من ٧ تشرين الثاني حتى ٢٣ منه ،وتخرجت فيها ٢٧ متدربة ،وتتابع المتدربات فيه ، كما في دكار ، دروساً عن الزراعة والطبخ ... الخ ... بالاضافة الى دروس عن زراعة القرن العشرين. كما يحاضر فيهن بعض الاختصاصيين في مواضيع مختلفة كسير التعاونيات الحديثة مثلاً.

ووضع الشباب في شاطيء العاج مشابه في كثير من النقاط لوضع الشباب السنغالي . ان الخط السياسي الذي تتبعه حكومة ابيجان لا يسر قسماً كبيراً من الشباب ، الطلاب في غالبيتهم . وهنا ايضاً ليس امام هؤلاء الا الانضمام الى التجمع الديمقراطي الافريقي ، وهو الحزب الوحيد . ولكن شاطيء العاج اغنى من السنغال. والواقع انه اغنى بلاد

(١) في السنغال وبعض البلدان الافريقية لا تزال عادة زواج الاطفال موجودة وقد تتزوج الفتاة وهي بعد في السادسة . وقدلا يزيد عمر الصبي في ليلة عرسه على العاشرة .

افريقيا الغربية . وينتج عن ذلك ان بعض المشكلات الاجتماعية اقل حدة في ابيجان منها في دكار . وكان عدد من صادفتهم في ابيجان يقتل الوقت او يسأل المارة ، اقل بكثير منه في دكار . واذا كان صحيحاً ان بعض الجادات تحيط بساحة «بروتيه» في دكار ، بينما تبقى الشوارع الثانوية مليئة بالحفر ، فان غالبية شوارع ابيجان في حالة جيدة ، بل ان ضاحية « تريشفيل » التي كانت في السابق مهملة ومركزاً للاوبئة ، اصبحت الآن نظيفة جميلة .

وهذا لا يعني ان كل شيء على ما يرام بالنسبة لمن لم يتخط الثلاثين من عمره . فاذا كانت البطالة جد قليلة في السنغال ، فانها موسمية في بعض المناطق كتريشفيل وادجامية ، ومزمنة في المناطق الأخرى . فالعادة التي لا تزال ساريه هي ان على من يعمل ان يعيل اشقاءه العاطلين عن العمل . وهذا العدد لا بأس به على الأطلاق . وليس من النادر ان يقدم لك العامل دزينة من هؤلاء الأشقاء . ولا يقتصر الامر على الاخوة فقط ، بلي يشمل ابناء العم والاصدقاء ايضاً ، إذا لم يكن سكان قرية بحالها . وهكذا يضطر العامل لاعالة عدد غير متناه . واذا علمنا ان سعيد الحظ لا يستطيع ان ينال في احسن الأحوال مركزاً يعطيه اكثر من خمسة عشر ألف فرنك شهرياً (١) عرفنا الازمة الصعبة التي يعانيها العامل ، خصوصاً اذا لم يكن لدى اهله مايدفعونه ثمناًالعروس له ، لأن عليه ان يجمع بنفسه ، بالاضافة الى اعباء من يعيلهم ، هذا المهر . وهو يساوي تقريباً الثمن الذي يدفع في غرب افريقيا . وقد شرح لي احد الغينيين في باماكو انه يريد العودة الى بلاده لأن النساء في

(١) الالف فرنك افريقي تساوي ما يقرب من اثنتي عشرة ليرة لبنانية .

باماكو « باهظات الثمن » ،فلكي يستطيع ان يتزوج ، عليه ان يدفع خمسين ألف فرنك افريقي . وقد قال ابراهام ، وهو خادم مكتب في أبيجان ،الرقم نفسه . وقد اتيحت لي فرصة سألت فيها جندياً سنغالياً وآخر غنياً عما دفعهما للانخراط في الجيش الفرنسي ، فقالا لي انهما فعلا ذلك لأن المركز يدر مالاً . وهما يستطيعان بما يقتصدانه ان يتزوجا عندما يعودان الى وطنيهما . وقد أكدا لي «انالفتاة تساوي ١٥٠٠٠٠ فرنك افريقي اذا رفض اهلها المساومة . »

وامام هذه المشكلات ، ونظراً للتعليم الذي لا يزال محصوراً ، لا يظهر كثيرمن الشبان في شاطيء العاج اهتماماً بالقضايا القومية والدولية. وهذا الامر لا يشمل الجميع طبعاً . فالطلاب ، وخصوصاً من امضى منهم بعض السنوات في اوروبا ، يهتم بمصير وطنه ومصير افريقيا . لقد امضيت ساعات طويلة اتناقش معهم في المقاهي المنتشرة حول « سان جرمان ده بره » وجادة« مونبرناس» . كانت تصريحات هوفويه تزعجهم عندما لا تثير اشمئزازهم . وهم يطلقون على المزارع السابق ، الذي اصبح مؤسس حزب ، احكاماً عنيفة في غالب الاحيان . وعند وصولي الى شاطيء العاج ، لم اجد شباناً بمثل هذا الغضب . ويجب ان لا ندهش لذلك . فهوفويه يستطيع ان يهدىء الرؤوس الحارة،باموالە الكثيرة ، فيعطيهم السيارات والدارات الفخمة حيث توجد البرادات وآلات تكييف الهواء .

وقد قال لي الاستاذ جاكوبي ببعض المرارة : « ان الطلاب الذين يكونون معارضين في باريس ، لا يفكرون عندما يعودون الى الوطن الا فيلعق احذية الشخصيات الحاكمةليربحوا اكبر كمية ممكنة من المال.»

وقد صرح لي السيد تيديان دام ، وزير الزراعة والمراعي في حكومة شاطيء العاج برأي مماثل : « ان الشبان الذين يعودون من فرنسا لا يعرفون شيئاً عن افريقيا ، ولا يريدون ان يعملوا . كل ما يهمهم هو ان يحصلوا على شقة مفروشة باثاث من طراز لويس السادس عشر ، وعلى سيارة اميركية . » بل ان الامر ذهب بـه الى ضرب مثل باحد الشبان الذين يحميهم ، وقد اظهر قلة كفاءته ، في عدة وظائف متتالية. ولا شك ان في هذا الوصف ، الذي جاء به شخصان مختلفا الميول ، شيئاً كثيراً من الصحة . وقد سبق لبرنار داديه ، وهو واحد من احسن شعراء افريقيا ، ان صرح بدوره : « لم يعد هناك وجود للمعارضة عندنا نظراً لان المسؤولين يحوّلون الشبان المستائين الى وزراء ، وعندها لا يتململون ابداً . »

وداديه نفسه فشل في عمله كوزير للاستعلامات ، اذ كان يطلب منه تزويد صحف ابيجان ، وعلى الاخص « ابيجان — الصباح » و« الاخوة » الجريدة الاسبوعية للتجمع الديمقراطي الافريقي ، بالانباء المستقاة من المصادر الفرنسية ، بالاضافة الى محطات اذاعة ابيجان . اذن فقد سار هو ايضاً في الطريق المستقيم . ولكنه مع ذلك صرح ببعض السخرية التي لم ينجح في سترها: «ان المرء حر في بلادي » وقد اعترف بهزة من كتفه ان نزعة معارضة حاولت ان تؤكد وجودها داخل حزب التجمع الديمقراطي الافريقي ، ولكنها لم تنجح . وكان على « حلفاء » مثله ان ينصحوا هوفويه بالحذر .. ولا شك ان سكوت برنار داديه لا يعني انه تخلى نهائياً عن مثله الاعلى . وهو لا يستطيع ، على المدى الطويل ، ان يؤيد تقسيم الشباب الى فئتين تعزل احداهما وراء الاسوار

الذهبية عن مشاكل شعبها ،ولا يستطيع ان يؤيد ازدياد حدة التوتر في الصراع الداخلي . انه عندما يرى شاباً في عمره يصدر اوامره بلهجة متعالية الى الفلاح والعامل والخادم الذين لا يملكون الامكانيات لتحصيل العلوم الجامعية ، لا بد ان ينتهي الى الاحساس بالحسرة التي ستنقلب عاجلاً او آجلاً الى عمل ليس في صالح العهد الحالي .

بقي علي ان اتحدث عن الشباب المالي والغاني ، والمهمة ليست سهلة ، لان كل محاولة لاعتبار الاجيال الفتية فئة اجتماعية مستقلة ، محكوم عليها مسبقاً بالفشل . وليس من الممكن تصور مشكلتهم الاضمن الاطار القومي . انهم يكملون الجيل الذي سبقهم ، وهم متحدرون منه .

في جمهورية غانا ومالي ، وهما بلدان ديناميكيان يرئسها رئيسان نشيطان يثقان بنفسيهما ، يصعب التفريق بين الشباب والرجال الاكبر سناً . ان خطاً واحداً يجمعهم . انهم يخضعون ، كبقية السكان ، الى نظام صارم بقدر ما تسمح الظروف الراهنة . واذا كانت الديمقراطية هي النظام الامثل الذي يطمح له البشر ، فانها مع الاسف لا تطبق ،دون ضرر او فضائح من جميع الاشكال والالوان ، على قاصرين . ولما كان ثلاثة ارباع الانسانية بما فيهم الغربيون عامة ، والاوروبيون خاصة ، لم يصلوا بعد الى اكبر من سن المراهقة العقلية ، فان النظام الديمقراطي لم يطبق بعد في اي جزء من اجزاء العالم بطريقة ترضي العقل والضمير والمنطق . والانظمة التي اقيمت في بلدان افريقيا ، لا تمت الى ديمقراطيتنا بصلة ، والاساليب التي يتبعها موديبو كيتا و كوامي نكروما ، لا تختلف من هذه الناحية عن اساليب سنغور وهوفويه .
ولكن كيتا ونكروما ، على عكس الرئيس السنغالي وزميله العاجي ،

قد عرفا كيف يوحدا الشبان والمسنين حول اهداف خاصة ملموسة يجب التوصل اليها . فمن البديهي ان المشاركة في بناء وحدة تضم القـــارة الواسعة ، اسلم من السير في ذيل اتحاد عقيم منذ بدايته ، ان الانتساب الى معسكر يدهش العالم منذ الآن بابعاده وثراوته وحيويتـــه ، اسلم من الانتماء الى حلف تحيط به الدول الافريقية من كل جانب ، ان الاحساس بالعيش مع اناس يلتفتون بعزم واصرار وثقة الى المستقبل ، رغم ان بعض الغموض لا يزال يغشي تلك الالتفاتة ، اسلم من الاحساس بالغضاضة في سبيل اعادة الماضي القريب او البعيد .

ان الماليين والغانيين لا يشكون على الاجمال في فائدة مجهوداتهم . والطلاب والشبان المتعلمون مقتنعون بذلك تماماً اكثر من غيرهم . صحيح ان السيد جان ماري كونيه رئيس جمهورية مالي قد قال ، وهو يتخطى ما يريد الافصاح عنه : « ان البلاد ليست بحاجة الى مثقفين »، ولكن الشبان لا يشعرون بالخيبة مع ذلك . فهؤلاء الشبان الذين يقضون عطلهم في براغ وموسكو وبيكين ، يزداد عـــددهم باطراد ، هؤلاء الشبان يكتسبون في رحلاتهم هذه شيئين اساسيين : الاول هو انهم في الجهة الافضل ، على الاقل من الناحية العددية ، لان اكثر من نصف سكان الكرة اصبح يدين بالاشتراكية ، والثاني انتماؤهم الى فئة من العاملين لا تقل اهمية عملهم عن العمال اليدويين . انهم واثقون انهم ، عندما يعودون الى بلادهم ، سيتسلمون مراكز ، لا تدر مالاً كثيراً ، بل مسؤوليات كبيرة ترضي غرورهم . لان مالي بحاجة ، على عكس ما قاله الرئيس كونيه ، الى ملاكات ومثقفين من الشباب .

وليس هناك ما هو اشد اختلافاً من الاجواء التي تسود الوزارات في

دكار وابيجان من جهة ،وباماكو واكرا من جهة اخرى . فالمرء يظن نفسه في مفوضية الاستعلامات المالية، في مقر امانة سر احدى منظمات الشباب. فالكل يتحرك ويتنقل،مشمراً عن ساعديه في غالب الاحيان، والحجاب قلائل وكذلك الاثاث الفخم ، والمرء يدخـــل الى المفوضية وكأنه داخل الى طاحونـــة ، يستطيـع ان يصل بسهولة الى الشخص الذي يريده ، ويلاحظ ان كل الاعمال تنفذ في وقتهـا المحدد . والسيد دام ، الصحفي المتخصص في باريس ، واخو وزير الزراعة والمراعي فى شاطيء العاج ، وهو امر بالغ الاهمية ، يكتفي بسيارة من طراز قديم (ستروين قوة حصانين) وبمكتب جد متواضع ،لدرجة دفعتني للتفتيش في ذاكرتي عن تصغير لكلمة مكتب . وها نحن قد بعدنا عن دس ١٩ والبيجو ٤٠٣ التي يستعملها المسؤولون الدكاريون والابيجانيون ! انني لم اجد في باحة مفوضية الاستعلامات الا سيارة واحدة من طراز ٤٠٣ ، وهي لا شك تخص المفوض غولوغو ، ولكنني لست واثقة من ذلك . وتجدر الاشارة ، في حديثنا عن الشباب الماليين ،ان الصعوبات التي خلقها انفراط اتحاد مالي قد دفع هؤلاء الشباب الى الالتفاف حول موديبو كيتا بحماس اقوى بكثير من حماس السنغاليين في الالتفاف حول ليوبولد سنغور. فالشبان يعرفون انهم قاسوا الكثير من جراء سوء نية المسؤولين السنغاليين والفرنسيين . وعنـــدما وُضع موديبو كيتا تحت الاقامة الجبرية ، احس جميع الشبان الماليين بالاهانة . وهـذا الشعور ولا شك يقوي الوحدة والوطنية .

ان مدينة اكرا اغنى من باماكو، لكونها مرفأ مهماًيعمها الازدهار والنشاط . وغالبية بناياتهـــا الحكومية التي تعود الى عهد السيطرة

البريطانية ، ذات مظهر فخم ، اغنى من كل ما شاده البريطانيون في ساليسبوري ونايروبي وبور سودان . وقد ورث الموظفون الغانيون ، وهم في غالبيتهم من الشباب لقلة الملاكات ، ورثوا شيئاً من المظاهر الانكلوسكسونية .

ويعبر السيد هنري اوفوري ، وهو واحد من المع صحفيي غانا والمسؤول عن سكرتارية التنمية والدعاية ، يعبر عن آرائه بشكل وفخامة يليقان بالكولونيل برمبل . وهو يلبس قبعة تيرولية مجلوبة من النمسا ، ويلفت النظر في اي مكان يكون فيه . ونادي الصحافة في اكرا لا يختلف في شيء عن النوادي اللندنية . فهنا وهناك ، تقدم البيرة والوسكي بكميات كبيرة ، ولكن دون ان تسمع اصوات عالية ،او ترى حركات غير لائقة .

وليسامحني القراء على هذه الضحكة الصغيرة التي تتطلع الى الوراء: فالسيد اوفوري رجل ذكي يشبه في حماسه وفعاليته:السيد تاي ، المولود في « لوميه » والمجنس بالجنسية الغانية ، وهو مكلف بالعلاقات مع الصحفيين الاجانب ، والسيد بسمارك الصحفي ايضاً ، ولكن ليس مرتبطاً بوزارة الانباء بل بوزارة الزراعة . ان مهمته الاساسية المتعبة ، هي اجتياز البلاد ، طولاً وعرضاً ، لاقناع الفلاحين بانشاء التعاونيات ، والتخلي عن العادات المتأخرة عن مستوى القرن العشرين ، ومهمته اساسية جداًفي بلاد ، نسبة الريفيين بين سكانها تبلغ ٨٥٪ . لقداستمعت اليه ، ذات مساء في بيته المريح الذى لا يشبه على كل حال الدارات الفخمة التي تحدثنا عنها في كلامنا عن شاطيء العاج ، وكان عائداً من جولة في شمال غانا ، ويتهيأ للرحيل ، بعد يومين او ثلاثة ، الى المناطق

الاستوائية ، كان يلبس قميصاً ذا مربعات ، ويشرح وهو شبه متمدد على الديوان : «واننا نشكل مجموعات طائرة ، نجتاز اكبر عدد ممكن من القرى . ما يهمنا هو اكتساب الرؤساء ، فاذا نجحنا في اقناعهم ، فانهم يتكفلون بنشر الافكار الجديدة. فهم يستطيعون قيادة الفلاحين وممارسة الزراعة المنوعة الاكثر صحة والاقل تأثراً بالاسواق العالمية من الزراعة الموحدة . انهم يمنعون العائلات من ترك البنات الراشدات يتنزهن عرايا في الشوارع . لقد حصلنا حتى الآن على نتائج مشجعة . فقد تجمع الفلاحون في مناطق عديدة والفوا تعاونيات ، وشكلوا نقابة لبيع جوز الهند بمساعدة الحكومة. وقد تخلت عدة شركات ، كانت تسيطر على اسواقنا ، عن بيع الجوز . »

والشبان الغانيون ، كزملائهم الماليين ، يعون انهم يشاركون في تحقيقات عظيمة . والمسؤولون لا يهملون ، على كل حال ، اي شيء في سبيل زيادة هذا الوعي عندهم ، والفرق بينهم وبين زملائهم الماليين هو ان الشابات الغانيات يساهمن بدرجة اكبر في هذه المجهودات . ولن نكرر ما سبق وقلناه عن ان الوضع في مالي يحد من تحرر الفتيات، لان اكثر السكان مسلمون. وعلى العكس نجد ان غالبية سكان غانا وثنية. اما المسيحية فانها لم تنتشر الا في بعض المناطق الساحلية . ويشكل المسلمون اقلية . وهذا في رأيي هو ما يفسر بروز دور المرأة الغانية في العمل الاجتماعي ، بعكس جميع بلدان افريقيا السوداء . فهن هناك طبيبات ومحاميات وصحفيات . بل ان هناك امرأة تقوم بوظيفة قاضي التحقيق في اكرا . كما ان هناك ، في احدى ضواحي اكرا ، مدرسة اوشيموتو الفنية ، وفيها ٣٥٠ طالبة من اصل طلابها السبعماية ، يتبعن

دروساً في الرسم والنحت ، الخ ... وهن كزملائهم الذكور ، يتابعن دروسهن في دار المعلمين في وينّابا او في المدرسة التقنية في كوماسي . وقد رأيت في ارشيموتو فتاة ظننت انها طالبة ، ثم افهمني السيد كوفي انتوبام ، اشهر فناني غانا ، والاستاذ في المعهد ، انها كانت طالبة منذ سنة تقريباً ، اما اليوم فانها معلمة في المعهد. وهناك في كورله بو اكثر من ٢٧٠ طالبة تدرس مهنة التمريض ، بالاضافة الى ٣٨ فتـــاة بين السادسة عشرة والسابعة عشرة يأخذن دروسهن الاولى في الثقافة العامة التي تنقصهن . والحق ان اجور هذه المدارس غالية ، فالتلميذ الخارجي يدفع ١٧٠ ليرة غانية في السنة ، اما الداخلي فيدفع ١٩٠ . ولكن المجالس المحلية توزع كثيراً من المنح ، اما الطالبات اللواتي يتعهدن بالعمل في المصالح الحكومية لمدة ثلاث سنوات بعد التخرج ، فانهن يبدأن في قبض الرواتب منذ التسجيل في المدرسة .

ولا شك ان هناك في السنغال وشاطيء العاج بعض الطالبات . ففي مدينة انطوني الجامعية ، وفي المراكز الطالبية في باريس ، نصادف بعض الكاميرونيات والداهوميات ، ولكنهن قليلات ، واقل بكثير منهن في غانا . اما اللواتي تحررن من التقاليد ، واللواتي فتح الباب امامهن ، فانهن احسن جواب على السؤال الاخير الذي اتى في آخر الفصل السابق . انهن يشكلن اكثر العناصر حماساً وانفتاحاً على فكرة الوحدة الافريقية ، بين الشباب السود . والرجال الافريقيون الذين يدعون للوحدة ويلتفتون نحو المستقبل يستطيعون الاعتماد عليهن .

الاحقاد القديمة والجديدة

قرية « جباتي تابيا » *G'béti - Tapea* قرية في شاطىء العاج ، لا تبعد كثيراً عن « دلوا » عاصمة المقاطعة الجنوبية الغربية . ان هيئتها لا تدل على شيء معين . البيوت من اللبن والاسطح من اوراق النخيل ، تحيط بساحتين مستطيلتين الواحدة اكبر من الاخرى . واهالي جباتي تابيا كبقية سكان المنطقة ، يزرعون الكاكاو والقهوة ، والموز الكبير او الموز الاستوائي وبعض الذرة . ويقضي الرجال نهـــارهم في الحقل ، ويجتمعون في المساء للمناقشة او للاستماع الى لاعب « الكبه ته » وهو عود بدائي ذو وترين يذكر صوته بصوت الكمان الصيني . اما النساء فتجمع الحبوب في اوعية مصنوعة من لحاء الاشجار . وهن يمشين كيلو مترين او ثلاثة للحصول على الماء او لغسل الغسيل ، في اقرب بحيرة او مستنقع . ويذهب الاولاد الى المدرسة . وهي بناء حديث ، لان جباتي تابيا مركز قضاء . وحتى تكتمل اللوحـــة ، اضيف ان رملاً كثيفاً احمر يغطي اوراق النخيل والموز على طول الطريق . قد يقول

المرء ان الاوراق اصابها الصدأ .

كل هذا لم يكن ليستوقفني لو لم تكلفني احدى بيوتات التجارة في باريس بتحقيق صحفي عن الحيوانات ، ولو لم يكن اهـل جباتي تابيا يعيلون ثلاثمائة قرد مقدس والقرد المهم . وقد استقبلني بوغوهيه بايي ، رئيس القرية ورئيس القضاء ، بأدب كبير ، ثم حدثني بكل سرور عن قصة جده ، الذي كان ، كما تقول الاسطورة المحليـــة ، اول من تلقى بركات القرود الآلهة ، ولم ينس ان يشير من جهـة الى انه يعتبر نفسه وطنياً متحمساً ،ومن جهة اخرى الى انه من سلالة و به‌ته « Bété

وهذه الاشارة الاخيرة جد مهمة . ان السيد بايي لم يكن ليسامحنى لو خلطت بينه وبين الموسّي . في ابيجان يظهر الموسيون فخرهم لانتمائهم لهذه القبيلة ، وهم يحتقرون الآنيس Agnis والابرون سواء بسواء . ان ألد اعـــداء هوفويه بواني ليسوا من الذين لا يوافقون على سياسته ، بل الذين ينتمون الى قبيلة غير قبيلته . انهم يتشدقون دائماً ان هذا الرئيس لم يؤخذ من قبائلهم بل من قبائل البولي . وكذلك يحس اتباع الملك اماندوفو الثالث بالاهانة نتيجة للمعاملة التي عومل بها ملكهم ، ولكن ما يثيرهم الى ابعد حد ، هو ان واحداً من عامة البوليين قـد رمى ملكهم الآنيس في السجن .

لقد حدثني الخفير الجمركي في فر كيسدوغو وهو قريب الملك اماندوفو ومؤيد مخلص له فقال : « لقد كان البوليون اكثر عدداً منا ، نحن الآنيس ، ولكنهم كانوا يعملون عندنا . لقد كنا اسيادهم . » ولم يكن يفهم لماذا « سلمت فرنسا البلاد ، بعد انسحابها التدريجي ، الى عبد كهوفويه وليس الى المتحدرين من العائلة المالكة . »

وقد دفعت العواطف الجمركي الى الوقوع في التطرف ، فهوفويه ليس عبداً ، وقد اشرت الى ذلك في السابق ، انه من عائلة رؤساء . ولكن هذا لا يلفت انتباه الآنيس الفخورين باصلهم الغاني ، ولا يمنعهم من احتقار البوليين ، كقبيلة . والامير كونامي ادينغرا ، لا يجد شيئاً ينتقده في شخص هوفويه ، ولكن حكمه عليه ليس اكثر رأفة من حكم الآنيس . فشعبه الابروني ، اتى ، مثل الآنيس ، من غانا . ولكن هذا لا يمنعه من اعتبار نفسه اعلى مقاماً من اماندوفو . وسجن هذا الاخير لا يزعجه على الاطلاق . بل على العكس ! ولنشر الى ان الآنيس والبوليين والابرون ينتمون الى وحدة قبلية هي الآنيس اشانتيس . وهم يتطلعون الى بقية الجماعات باحتقار فظيع . وهذه الجماعات [1] هي : كرومن وتضم سبع قبائل منها بەته ، وماندیه وتضم ست قبائل ودنغورو وتضم ثماني قبائل ، وكوا وتضم اثنتي عشرة قبيلة .

وانا الح هنا على مثل شاطيء العاج . لان فيه مجموعة لا حصر لها من القبائل ، ونظر لكونه بلداً غنياً ، فقد اجتذب الشعوب المجاورة. ولكن الوفاق لم يسد الا شكلياً بين السكان الاصليين والغزاة . وكان السلام يسود في اغلب الاحيان نتيجة لهدنة ليس الا . وعندما تحس احدى

(١) آنيس اشانتيس تضم قبائل : بولي ، آنيس ، ابولون ، اهوتيله ، اسوماس ، نيانس ، اشانتيس ، آبرون . كرومن : بەته ، ديدا ، غوديه ، كوسي ، ميو ، غيريه ، اوويهليه ، مانديه : مالينكيه ، ديولا ، ماركا ، بافينغ ، بامبارا ، سينوفو . ودنغورو : ياكوبا ، دان ، غورو ، غاغو ، تورا ، اوانس ، كو ، مونا ، وكوا : ابيدجيس ، اوجوكرو ، الاديان ، ابرييه ، آبوريه ، مباتوس ، اتيس ، افيكوس ، دجيميني — تاغواناس ، بوبوس ، لوبيس ، فولبيه .

القبائل بالقوة ، كانت الحرب تعود من جديد . ولم يحـــاول الغزاة الاوروبيون ، وهم آخر القادمين ، تخفيف حدة هذه المنازعات القديمة، اذا لم نقل انهم كانوا دائماً يحاولون ، بخبث ، احياءها واثارتها من جديد . وهذا ينسجم مع مفهوم الاحتلال والغزو . وما دام السكان الاصليون غير متفقين فانهم لا يفكرون في محاربة الاجنبي الدخيل . ولكي تبقى هذه الحزازات والاحقاد ، استعمل الاوروبيون كل الوسائل .

من عادة البيض ان يقيموا في جوهانسبورغ كل عام ، مسابقات في الرقص والعادات الشعبية . وبهذه المناسبة ، يسمح لافراد قبائل البانتو والزولو ، بترك تحفظاتهم ، لا لينزلوا الى المناجم ، بل لاظهار مواهبهم في الرقص والحركات ، ويعطى احسن الراقصين جائزة . وغالبـاً ما تنتهي هذه المسابقات بمعارك ومشاحنات ، خصوصـاً بعد فترات من السكر والعربدة في الاحياء السوداء ، وعندها يقول منظمو الاحتفالات للحضور : « انكم ترون هؤلاء المتوحشين يقتتلون . ونحن هنا ، لحسن الحظ ، للمحافظة على الحضارة والنظام والهدوء . »

ان حكومة هوفويه بواني لا تساعد بتصرفاتهـــا على اطفاء نيران الحقد هذه ، بل انها ، بتشجيعها لامثال كونامي ادينغرا و اعتقالها لاماندوفو ، تزيد من حدتها . وهي لا تساعد بالتالي ، على اقامة علاقات طيبة مـع الشعوب المجاورة . ان كوامي نكروما اكثر ذكاء من ان يعلق بعض الاهمية على هذه القصص المطاطة حول الملوك والامراء ، الذين لا يزالون يشغلون اهتمام كثير من الناس البسطاء . والدليـــل الناصع على هذا الحماس الهائل والاندفاع الكبير الذي انطلق منهما لتوحيد الشعب الغاني وقد نجح في هذا نجاحاً لا بأس به . ومع ذلك ، يعلم الجميـع ان قبائل

عديدة تسكن غانا ، وان كل قبيلة منها تتكلم لغة خاصة بها ،بالاضافة الى ان عدة لهجات مختلفة تتفرع من كل لغــــة . ولكنه بحرصه على الفكرة الاتحادية الافريقية ، التي كرس لها حياته ، والتي يعتبرها مثله الاعلى ، لا يفوت فرصة يستطيـع فيها تعجيل الحدث الذي يتمناه . ان مطالب الآنيس تعطيه حجة مناسبة للاشارة الى التعقيد الذي يلاقيــــه زملاؤه في شاطىء العاج ، ويشكل عقبة في سبيل قيام وحدة افريقية ، او على الاقل اتحاد افريقي . ولهذا فان نكروما لا يمانع البتة في تأليف حكومة مؤقتة لشاطىء العاج بشكلها ، في غانا ، اللاجئون اليها من القبائل المؤيدة للآنيس. وهو لا يقصد بتأييده هذا الى تقسيم اراضي دولة شاطىء العاج ، بل الى احاطة غانا بشعوب تدعو للاهداف التي يدعو لها الشعب الغاني. ان غانا الكبرى مع مالي وغينيا ونيجيريا وبعض البلدان الاخرى كتانجنيقا التي ستستقل في العام المقبل (١) ،تشكل نواة مدهشة لافريقيا المتحدة في المستقبل .

وقد فسر الاوساجييفو هذه السياسة الخارجية التي يتبعها بصراحة دون لبس او ابهام ، في الخطاب الذي القاه في ١٦ كانون الاول سنة ١٩٥٩ فبعد ان عدد الاسباب التي يجدها لازمة لاقامة وحدة بين غانا والتوغو الفرنسي سابقاً ، تابـع قائلاً : « ان الملاحظات التي قلتها حول التوغو الفرنسي ، تنطبق الى حد بعيد على الشعب « السانفي » Sanvi في القسم الجنوبي الغربي من غانا ، الذي ضمته القوى المستعمرة الى شاطىء العاج . »

« ان سكان بلاد سانفي قسم من القبائل الغانية ، قسم من قبائل

(١) نالت تانجنيقا استقلالها في اوائل هذا العام .

نزيما واوين ؛ والواقع ان كلمة سانفي ليست الا تحريفاً لكلمة اوين. وهم يشتركون في اللغة والثقافة والتقاليد ، مع اخوانهم الغانيين . »

« ان الحوادث الاخيرة (١) التي حدثت في بلاد سانفي ، قد اثبتت تماماً ، ان السكان يريدون الاتحاد مع اخوانهم الغانيين ، والعدالة تقضي ان تقدم لهم كل التسهيلات الممكنة ، التي تؤمن لهم اللحاق باخواتهم واخوانهم في غانا . »

وانا واثقة تماماً ان نكروما لا يتحدث بهـــذا الشكل ليدعو الى استعمار جديد من صنع غانا . ان هذا مخالف ومناقض لكل ما نعرفه من تاريخه وطباعه بالاضافة الى انه لا يتناسب مطلقاً مع الامكانيا· العسكرية الحالية التي تملكها غـــانا . وبانتظار تحقق احلامه ا· الافريقية ، نجد أن الشعوب الافريقية لا تزال مقسمة الى ·· والمجموعـات الى قبائل وشيع متفرقة ، لا تجمعها و· اية صداقـة ، وهي في بعض الحالات تتنازع وتتباد· ان تفسيرات هذا الحدث كثيرة متنوعة . فف· اوضاع افريقيا ، كان الصراع في سبيل الحـ رحمة فيه ولا هوادة . فالقبائل ، التي لا تجد · على قيد الحياة ، تضطر لمحاربة جيرانها الذين يسكـ ان الحصول على العبيد والنساء ليس مسألة ارضاء للغرور ضرورية ملحة . ان انعزال كل قرية عن الاخرى ، كان · علاقات صداقة بينها ، ولو حدث هذا الامر لـكان من الممكن

(١) اعتقال اماندوفو وتشكيل حكومة مؤقتة على الارض الغانية والاضطرابات التي حدثت بين صفوف الآنيس .

علاقات انسانية اسلم . ولم يحاول المدنون الاوروبيون ان يخففوا من حدة هذه الفروقات والاختلافات ؛ بـــل انهم كانوا ، هنا وهناك ، يصبون الزيت على النار ، ليزيدوا الانقسامات متبعين دائماً مبدأ فرق تسد . كانوا يقيمون في امبراطورية ما وراء البحار تماسكاً هشاً سطحياً تكفي اية هزة لقلبه رأساً على عقب .

والمذبحة التي ذهب ضحيتها الوف الداهوميين في تريشفيل عام ١٩٥٩ انصع دليل على ما ذكرته . فقد روى شاهد عيان ان المنظر كان كثير القسوة والبشاعة . انتهاك للحرمات ونهب وتسميم وهجوم على المدارس والمؤسسات الدينية الاوروبية . لم يكن ينقص المذبحة اي شيء . وقد جاء في احـــدى روايات الحادثة ، وقد نشرها الاوروبيون وبعض الافريقيـين ان الجمهور في تريشفيل انقض على الداهوميين ، بعد اختفاء بضعة اطفال من الحي . وقد اكتُشف ان الداهوميين يقدمون بعض القرابين البشرية . والواقع ان الداهومي بلد صغير لا تتجـاوز مساحته ١٢٢٠٠٠ كلم مربع . وهو رغم خصب تربته ، لا يسد حاجة سكانه البالغ عددهم مليوناً ونصف المليون ، يضطر الكثـــيرون منهم الى الهجرة لعدم وجود اية صناعة محلية . وكان المسؤولون الفرنسيون يشجعون دائماً هذه الهجرة . وهؤلاء المهـــاجرون يكتفون ، كبقية مهاجري الدول المتخلفة الى اوروبا واميركا الشمالية ، باجرة زهيدة بعد ان يشكروا الظروف التي اوجدت لهم بعض الاعمال . وسرعان ما يحصلون على وظـائف ذات مدخول اكبر ، لنشاطهم وجلدهم . وهـذا لا يمر دون اثارة حسد السكان المحليـــين . وقد تطوع بعض الحمقى وذوي النوايا السيئة ، لاقناع سكان ضاحية تريشفيل بان « الاجانب » ينتزعون

اللقمة من افواههم . ولم يكن يلزم اكثر من هذه الاثارة الجنون الجماعي وانفجاره . وعندما يشك المرء ، يتحمل الابرياء نتائج عمله الاخرق . وقد قال لي رسام شاب من مدرسي تريشفيل ، كان معي على الباخرة التي اقلتني من ابيجان الى بوردو في طريق عودتي الى فرنسا ، قال لي دون خجل ان المذبحة التي قامت في الحي ، ونفي الداهوميين من شاطىء العاج قد سببا انخفاضاً في عدد العاطلين عن العمل !!!

في السنغال ، تعيش قبائل البهل *Peuhls* والوولف واللبو والبولولبول ، والكابور والميمبور والتوكولور ، دون ان تصطدم . وذلك لانها ، بصورة عامة ، تسكن اماكن محددة منفصلة تمام الانفصال ، باستثناء البهل والتوكولور وهما قبيلتان من البدو الرحل ، يجدهما المرء في كل مكان تقريباً . وقد نجحت فرنسا في هذا البلد وخلقت بعض الاستقرار . انني لم اسمع واحداً من قبيلة اللبو في دكار او الميمبور في قولاك يتكلم بقسوة عن الوولف او الكابور . ولنضف ان هذا قد يكون لانشغالهم باحقاد اخرى . فسكان سان لويس مثلاً لا يغفرون لدكار انها انتزعت من مدينتهم لقب العاصمة . وهذا ليس تعبيراً عن كبرياء مجروح . كما انه ليس من قبيل المصادفة ان يكون حزب الاستقلال الافريقي (١) يعد نسبة كبيرة من سكان تلك المنطقة . ان سان لويس في السنغال تعاني ازمة اقتصادية خانقة رغم داراتها الانيقة البيضاء التي تحيط بها الاشجار والخضرة ، رغم الجسر الحديث الذي يعتبر احسن جسور افريقيا الغربية الفرنسية . ومن الصحيح ايضاً ان سكان سان لويس ، العاصمة القديمة ، لا يزالون يعتبرون انفسهم

---

(١) حزب الاستقلال الافريقي ، يدعو للوحدة الافريقية وقد حله سنغور .

اكثر ثقافة واكثر رقياً من سكان دكار ، وهم يرون ان هؤلاء يشكلون مجموعة اتت اليها من جميع الجهات ، وهم يعتبرون انفسهم اقرب الى الحضارة من سكان دكار لانهم كانوا اول من احتك بالفرنسيين !!

وقد سمعت شرحاً مماثلاً من احد سكان « كولوني » اي المنطقة الحدودية التي تجاور اكرا . فكان يفتخر بانه ارقى من بدائيي الداخل ، لانه كان من الاوائل الذين استقبلوا الدانماركيين ثم الهولنديين واخيراً الانكليز . ان الاستنتاج سخيف طبعاً ولكنه خطأ معذور . ان المسؤولية تقع علينا ، نحن الفرنسيين ، هذه المرة ايضاً . فقد حاول الاوروبيون منذ البعيد ، منذ وجودهم في أفريقيا ، ان يقنعوا الافريقيين انه ليس هناك الا حضارة واحدة ، هي الحضارة الاوروبية. ان سكان سان لويس يظنون انفسهم ارقى من سكان تامبا كوندا(1) لانهم عرفوا الفرنسية قبلهم . بالاضافة الى ان الافريقيين لم يستطيعوا تجنب الخطأ الذي وقع فيه الاميركيون وكثيرمن الاوروبيين . انهم يخلطون بين مظاهر الثروة الخارجية وبين الحضارة الحقيقية . فالمرء راق بالنسبة لهم اذا كان يملك براداً او جهازاً تلفزيونياً . والحق ، انه كان على المستعمرين ان يجنبوهم هذا النوع من الغلط .

في افريقيا المضطربة هذه ، التي تتجاذبها التيارات العنيفة ، ينخرط الكثيرون في الادعاء انهم مدنوا الباقين . فالسنغاليون مثلاً ، لا يفوتون فرصة ليعيدوا الى الاذهان انهم الآن ، الشعب الافريقي الوحيد الذي لا تنقصه الملاكات (Cadres) . ثم يستخلصون من هذا ، ملحين ببعض الرضا ، على انهم ساهموا في تمدين الماليين . ومقابل هذا لا يسكت

---

(1) آخر مدينة سنغالية مهمة على حدود السودان (مالي)

السودانيون ، فيعودون الى الوقت الذي امتدت فيه امبراطورية مالي ، في القرن الخامس عشر ، فشملت القسم الاكبر من الغرب الافريقي ، ليثبتوا تفوقهم الحضاري على السنغاليين . ولا يقتصر الامر على جدل بيزنطي ، كان مقدراً له ان يزول لولا المداخلات الاجنبية التي اشرنا اليها . فقد كان الناس ، في السودان وفي السنغال على السواء ، مستعدين لنسيان الاحقاد القديمة لانشاء الاتحاد . ولكن المسؤولين اليوم ، يذكرون الجميع بها . انهم يؤججون النار في كل القلوب ، نتيجة لهذا العداء الشديد المؤسف الذي يفصل دكار عن باماكو .

ولا يحتاج المرء ، للتثبت من هذا ، الا الى سماع اذاعة باماكو ، بعد الاستماع الى اذاعة دكار . والتجربة ولا بد ، تؤسف هؤلاء الذين يتمنون للافريقيين الاتحاد ، ليصلوا بقارتهم الى المركز اللائق بها . ويجب ان اعترف هنا ان لهجه اذاعة دكار اكثر عداء وقسوة من لهجة مذيعي باماكو . فمن خلال الخطب والاخبار التي تذاع ، نستطيع تلمس شخصية كل من الزعيمين السنغالي والمالي . وقد سبق واشرت الى ان سنغور كان ، في المقابلة التي اجريتها معه ، شديد اللهجة ، يقصد التجريح . وقد حدثني عن « الحكومات التي تمارس الديكتاتورية في افريقيا » ولما سألته عما اذا كان يقصد غينيا ، اجاب قائلاً : « انني لا اقصد التحدث عن غينيا ، بل عن بلد افضل عدم ذكر اسمه » .

ولم يكن من العبقرية في شيء ، اكتشاف البلد الذي كان يقصده. اما موديبو كيتا ، فقد كان يعبر عن آرائه بلهجة هادئة رتيبة ، محاولاً جهده تجنب كل كلمة وكل حركة لا فائدة منها . وعندما سألته رأيه عن مسؤولية الحكام السنغاليين في احداث آب سنة ١٩٦٠ ،

ايلول سنة ١٩٦٠ : « ... فاولاً ، اتاح اتحاد مالي للسنغـــال ان تنال الاستقلال ، لان العـــالم كله يعرف ان المسؤولين السنغاليين ، الذين كانوا يعانون من الصعوبات الداخلية ، لم يكونوا يستطيعون تحقيق الاستقلال لبلادهم ، لانعزالهم عن بقية شعوب افريقيا ...» ثم اضاف في مقطع آخر ، وهو يرد على الادعاء السنغالي الذي يزعم ان السودان الفقير كان يريد ارهاق كاهل السودان الغني : « ... وسنبرهن للمسؤولين السنغاليين ايضاً ، ان الجمهورية المالية كانت السوق الرئيسية لمصنوعات ومنتوجات السنغال ، وان جمهوريتنا لم تكن فقيرة ، وان السنغـــال ليس اغنى منا ، حتى في الامكانيات البشرية ، واننا نستطيع الاسراع بتنمية اقتصاد جمهوريتنا ...» وفي آخر خطابه ، اطلق هذا التحدي ، الذي كان موجهاً بالدرجة الاولى الى المسؤولين في دكار : « ... لقد ولدت جمهورية مالي وستبقى ... ان كلمة مالي ستظل ترن كالناقوس في آذان وضمائر هؤلاء الذين عملوا على انفراط عقد اتحاد مالي او الذين انشرحت صدورهم لهذا الانفراط ...»

ان الجراح القديمة والجديدة موجودة في هذه الخصومات التي تتنازع الافريقيين ، فالانفعالية تتخطى كل الاذهان . ولهذا فان اية جملة ، واقل حركة ، تتخذ ابعاداً لا متناهية . ان عرض الوقائع بصدق ، يعتبر انتقاداً هداماً ، حتى ولو اتى من قبل الاصدقاء او المؤيدين .

لم يحضر موديبو كيتا حفلات اعلان استقلال موريتانيا(١) لان السيد سنغور وعقيلته كانا من المدعوين . ولو كانت هذه التصرفات لا تدل الا

---

(١) موريتانيا او بلاد شنقيط قسم لا يتجزأ من اراضي مراكش . ولكن الاستعمار الفرنسي فصله عن الوطن الام وجعل منه جمهورية منفصلة .

على المراهقة وعنفوان الشباب ، لما احس المرء بالخشية والخوف ، لان كل شيء لا بـــد ان يهدأ بعد فترة تطول او تقصر تباعاً للظروف . ولكن هذه العيوب ، للاسف ، قد تولد تشويهاً دائماً او على الاقل لمدة غير قصيرة . ان افريقيا اليوم في اوج حيويتها ، وقد لا تمر بها مناسبات كالتي تجتازها اليوم .

لقد كانت الاحقاد القديمة في السابق اقل خطراً منهـــا في الوقت الحاضر ، لأنها كانت تنتهي ، في اكثر الاحيان ، وتزول في محـــاوبة الغزاة البيض ، وبهذا ، كانت تساهم في ايقاظ الحيوية والنشاط عند السود . اما اليوم ، فعلى العكس تماماً ، يحس السنغالي بالاندفـاع نحو فرنسا اكثر من اللازم ، نكاية بالسودانيين . وهو بهذا يصبح نموذجاً مشوهاً للمستعمرين القدامى . وتتجه جمهورية مالي ، اكثر فاكثر ، نحو اليسار ، لتبتعد عن السنغال ، هذا اذا لم تُصب بجنون الاضطهـــاد فتصبح شريكاً لا يؤمن جانبه في اي اتحاد قد يقام في افريقيا . ويصبح شاطىء العاج ، بخصومات قبائله ، قريب الشبه بالكونغو ... اما افريقيا المستقبل ، اما الوحدة الافريقية ، فتؤجلان الى اجل غير مسمى .

ان الاشكال المتحركة تتجمد بسرعة في هـذه المنطقة من العالم ، حيث يسير كل شيء بسرعة هائلة . فالمؤقت يصبح ثابتاً . وقـد اتت احداث الكونغو فاثبتت ان عملية بلقنة افريقيا تشكل اهون العمليات وانجعها لانقاذ ما يمكن انقاذه من اشلاء الاستعمار البشع الذي يتربص بها الدوائر . ان كل من يساهم في هذا التقطيع لاوصال افريقيـــا ، يلعب لعبة الاستعمار ، وبالتالي يعمل ضد الافريقيين . ولهذا ، فان انفراط اتحاد مالي كان كارثة افريقية . وانا اعتقد انني قـــد اشرت

بوضوح الى ... هذه المصيبة . ولكن هذا لا يمنع ان المسؤولين الماليين ، ... ديد ، يساهمون ، عن غير قصد ، في ابقاء هذا الانقسام الجديد في القارة السوداء .

ان مأساة الكونغو لا تهم الكونغوليين وحدهم . ويدرك الجميع هذا الامر . فالبيض الرجعيون يدركون ان المعركة التي تدور في المستعمرة البلجيكية السابقة تهمهم جميعاً ، وان الكونغو ، ليس آخر الجسور ، ولكنه واحد من آخر الجسور التي لا تزال في ايديهم والتي سيفقدونها في هذا النضال الهائل من اجل الحرية والكرامة والاستقلال الاقتصادي بينهم وبين القوة الثالثة .

لقد اثبت البوير (١) هذا الامر عندما سارعوا الى منح تأشيرات لكل البلجيكيين الذين كانوا يقطنون الكونغو ، واحبوا اللجوء الى اتحاد جنوب افريقيا ، بل انهم لم يكتفوا بهذا « التضامن » معهم ، فدفعهم حماسهم الى دفع اجور سفرهم بالدرجة الاولى . تماماً ، كالكولونيل ترينكييه الذي اراد ان يتابع معركته ، فوضع نفسه تحت تصرف تشومبي ، الذي بدأ يتظاهر بانزعاجه من الضرائب التي تأخذها الحكومة المركزية . ان البوير يعرفون انه اذا كانت الجزائر والكونغو وانغولا اليوم مسرحاً لعمليات متتابعة في معركة واحدة ، فان الشرارة ستصل الى بلادهم نفسها ، وفي القريب العاجل كما اتمنى . وهذه القناعة ليست حديثة العهد ، لان الجيش الابيض في اتحاد جنوب افريقيا استمر حتى عام ١٩٥٩ ، في ارسال بعض ضباطه الكبار الى الجزائر ليتعلموا هناك وسائل « اعادة السلم » .

---

(١) القسم الهولندي من اوروبيي اتحاد جنوب افريقيا

وقد فهم هذا الامر ايضاً افريقيون عديدون . لقد صرح كوامي نكروما ، منذ وقت قصير : « ان مشاكل افريقيا من الجنوب الى الجزائر ، متشابهة . ففي كل البلدان اقلية اوروبية استوطنت منذ وقت طويل ، فصارت تدّعي ، استناداً الى عنصرها وحده ، ان لها الحق في ان تحكم الى الابد ، وتسير جميع السكان . »

« واليوم ، تستمر حرب الجزائر ، وفي افريقيا الجنوبية وروديسيا ونياسلاند ، يسود الهدوء الذي ساد الكونغو قبل العاصفة . ان احداً لم يكن يظن ان الكونغو سينال استقلاله بهذه السرعة ، ان احداً لا ينتبه الى ان القوى التي حركة الكونغو ، هي التي تعمل اليوم في انغولا ، المستعمرة البورتغالية ، وموزمبيك وفي ممتلكات اسبانيا المزعومة في ريو ده اورو وريو موني .

ان نكروما ولا شك مخطىء في بعض ما قاله هنا حول الجزائر. فاذا كان صحيحاً ان المستوطنين الاوروبيين عنصريون ، فانهم ولاشك لا يصلون الى درجة التحدث عن اختلاف اللون . انهم عنصريون من نوع خاص . اما البوير ، فانهم يبالغون في التعجرف ويعتبرون انفسهم اسمى من السود ، وذلك استناداً الى ارادة العناية الآلهية . فالمستوطنون الاوروبيون في الجزائر يعرفون في غالبيتهم ، ان الحقوق التي يزعمون انها لا تنتقل ، ليست مكتسبة ولا مشروعة ولا ابدية . ولكن هذا لا يمنع ان الاوساجيفو اصاب كبد الحقيقة عندما اكد ان القوى التي تعمل لتفتيت وحدة الكونغو هي نفسها التي تعمل في كل البلدان الافريقية التي لم تنل بعد استقلالها ، وهو جد مصيب ايضاً عندما شبه الهدوء الذي لا يزال يسود بعض الامكنة ، بالهدوء الذي ساد الكونغو

قبل العاصفة .

ان الزعماء الافريقيين المخلصين لا يتلمسون وحدهم هذا الوضع،لان سنغور نفسه يوجه منذ اعوام ، الرجاء تلو الرجاء ، الى فرنسا لتضع حداً لحرب الجزائر التي لا تشكل خطراً كبيرا على امم افريقيا الفتية فحسب ، بل تضعف من مواقف المسؤولين المؤيدين لفرنسا في افريقيا من امثاله .

وكذلك، استمعت من اذاعة ابيجان،الى خطاب القاه هوفويه بواني حول هذا الموضوع ، ونحن نعلم ان هوفويه ، على استعداد للظهور بمظهر المتحمس للديغولية ، اكثر من ديغول نفسه ، ولكنه مع ذلك الح في خطابه بشكل غير اعتيادي على، ضرورة وضع حد لاعمال العنف في الجزائر . والشعوب الافريقية ،من جهتها ، تشعر بأن مصيرها ومصير كل افريقيا مرتبطان بمصير الجزائر وجنوب افريقيـا والمستعمرات البورتغاليـة والاسبانية ، وخصوصاً بمصير الكونغو . وقد كان لاغتيال لومومبا صـدى جماعي في ابيجان واكرا ودكار وباماكو .

ان الحرب الجزائرية ، كالقضية الكونغولية ، سبب في اقامـة فروقات جديدة بين الدول الافريقية ، وفي ازدياد حدة الفروقات السابقة . ان غالبية الدول الافريقية، وخصوصا التي كانت مستعمرات فرنسية في السابق ، تشعر بالتضامن مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والشعب الجزائري. وهي تعرف انها اذا كانت قد استطاعت الحصول على الاستقلال دون تعب ونضال شاقين ، فان الفضل في هذا يعود الى جبهة التحرير الوطني . ويجب ان لا يتضايق الفرنسيون من هذه الكلمات ، لانهم ايضاً لا يجهلون صحة ما ورد فيها ، فاذا ادعت فرنسا

ادعى بعض الفرنسيين انه من الممكن القيام مادياً وعسكرياً بعملية من نوع حرب الابادة التي اقيمت في الجزائر ، فانهم ولا شك واهمون . ونحن لا ننسى ابداً ردة الفعل في كل انحاء افريقيا ، على زعم السيد غبريال دابروزيه[1] خلال مناقشة القضية الجزائرية في هيئة الامم المتحدة في اواخر سنة ١٩٦٠ . فقد كان يلعب لعبة الاستعماريين الفرنسيين الذين يقومون بحرب الابادة محاولاً اقناع مستمعيه ان هناك اختلافاً اساسياً بين جبهة التحرير الوطني والشعب الجزائري ولكن الردود الحاسمة لم تتأخر ، وخصوصاً من قبل باماكو ، حيث لم يفت الرأي العام ان يشير الى الدور الذي لعبه السيد دابروزيه في انشقاق الاتحاد المالي .

وهذه الحرب المشؤومة التي تقوم بها فرنسا في الجزائر ، تساهم للاسف في زيادة الانقسامات الداخلية في الدول الافريقية . فبينا كان دابروزيه ومامادو ضيا يجعلان من شخصيهما معبرين عن وجهة النظر الفرنسية الرسمية ، في الامم المتحدة ، كان السيد لامين غيه وهو سنغالي آخر ، في طريقه الى غانا يؤكد في كوناكري : « انني اقول بصوت عال ، انه ليس لي الحق في ان اطالب بالاستقلال لبلادي ، دون ان اطالب به للجزائر . » ولكن هذا التصريح الشجاع لم يكن كافياً لتخفيف حدة الاختلافات فقد عقد مؤتمر الدار البيضاء ، وحضر المؤتمر مندوبون عن سبع دول افريقية مستقلة منها غانا وغينيا ومالي . وقد اتخذ المؤتمرون قراراً شديد اللهجة يتهم بممالأة الاستعمار كل دولة

---

(١) المندوب السنغالي في هيئة الامم .

تقدم لفرنسا اية مساعدات في حربها مع جبهة التحرير الوطنية والشعب الجزائري .

وفي الدار البيضاء لاحظ الجميع ان النزاع بين مالي وغينيا قد ترك بعض الاثر ، رغم الحركة التي قام بها موديبو كيتا وسيكوتوري ، فقد اجتمع الزعيمان في ٤ كانون الاول سنة ١٩٦٠ ليعلنا على الملأ استئناف الاتصالات بين الجمهوريتين الفتيتين . وقد كنت ، خلال المؤتمر الذي عقد في مراكش ، في اكرا ، في الوقت الذي كان فيها مندوبون ماليون مكلفون بالقيام بالمباحثات التمهيدية لتوقيع الاتفاق بين بلادهم وبين غانا وغينيا . وقد اجتمعت مع دودوغيه واصدقائه لنقرأ النص الحرفي للقرار ، وقد نشرته صحف غانا . وعندما وصلنا الى المقطع الذي يستنكر كل عون لفرنسا قال غيه : « اننا المقصودون بهذا ! » وقال آخر ،ولم اعد اذكر من : « هذا ، من وحي غينيا . » والواقع ان الغينيين ينتقدون مالي لانها لاتزال تعطي فرنسا قواعد عسكرية في اراضيها .

وكأنما لم يكن يكفي افريقيا ما فيها من خلافات واوجاع تقف عقبة في سبيل ايجاد بعض الانسجام فيها ، فأتت الحرب الباردة مؤخراً تعقّد المشكلة . وهي الان تقوم بتفريق الدول الافريقية الى معسكرات متخاصمة . ففي باماكو سمعت بعض العبارات حول زيارة السيد كندي شقيق الرئيس الاميركي الذي قام بجولة دعائية وتوقف في عدة عواصم افريقية ليعبر للمسؤولين فيها عن عواطفه الشخصية وعواطف الولايات المتحدة . وفي الوقت نفسه رأيت افلاماً ومحاضرين من الصين الشعبية التي تدعو الطلاب الافريقيين للتخصص في بكين . ومن الطبيعي ان يسهر

الاتحاد السوفياتي على هذه النبته ، تؤيده في ذلك الديمقراطيات الشعبية النشيطة في هذا الميدان كتشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية . ومنذ وقت قليل ، قام الرئيس تيتو بزيارة خاطفة الى اكرا . ان بلاد افريقيا السوداء تميل الى الحياد . ولكن الحياد سياسة صعبة عندما لاتملك الدولة قناة السويس او البترول او الموقع الجغرافي الهام . والحياد سياسة صعبة عندما يتوجب انشاء صناعات وطنية والانطلاق من العدم لاستثمار الخيرات الدفينة واللحاق بركب الحضارة وانهاض الاقتصاد من عثرتـه وانشاء الملاكات اللازمة . وفي هذه الاوضاع تميل الدول الافريقيـة الفتية الى مجاراة المعسكر الذي يسارع الى مساعدتها في تمويل برامـج التنمية فيها ، حتى ولو كان هذا العون مشروطاً . وهذا قد يتناقض مع الميول الحقيقية للشعوب ، كما هي الحال بالنسبة لمالي ، التي تحاول جاهدة ايجاد اشتراكية افريقية ولكنها مع ذلك لا تزال تنتمي الى منطقـة الفرنك . وهذه هي حال موريتانيا التي لا تملك اية ثروة ذاتيـه والتي ستبقى لاعوام عديدة بعيدة كل البعد عن الاستقلال الحقيقي ، تعيش من فتات موائد الفرنسيين(١) وهذا ما يزيد في بعدالشقةبين دول افريقيا التي تعتمد على معونة البلد المستعمر السابق كشاطىء العاج والسنغال ، وبين تلك التي تباعدت كغينيا ، عن القوى الاوروبية التي كانت ترتبط بها في السابق . وفي الوقت الحاضر ، لا تهتم كل من اميركا وروسيا ،

---

(١) لقد تساءل الكثيرون عما اذا كان الاستقلال الذي اعلن في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٩٦٠ قد منح حباً بموريتانيا او نكاية بالمغرب . فوضع هذه الجمهورية مشكوك فيه سواء من الناحية الاقتصادية او من الناحية السياسية . فغالبية السكان ينتسبون الى المغرب ، وهكذا فان استقلالها امر يزيد في عزلتها وارتمائها في احضان فرنسا .

عن حسن نية بافريقيا ، رغم ابداء العواطف الفياضة والحركات الموزونة .

ان افريقيا تفتش عن نفسها . ولكننا لا نرى اليوم الا دولا افريقية متفرقة ، لا تتفق فيما بينها على الغالب . ان العواطف التي تعمر قلوب الرجال الافريقيين – وهي عواطف سهلة التفسير والفهم بعد سنوات من الانتظار والامل – هذه العواطف يجب ان تسير نحو الاعتدال لكي يقوم بينهم ، على الاقل ، صلات دبلوماسية عادية ، وطبيعي ان الحملات التي يتبادلها نكروما وهوفويه على الصعيد الشخصي لا تساهم في تنسيق العلاقات بين غانا وشاطىء العاج . وهكذا لن تولد افريقيا المتحدة ، مادامت القبائل متناحرة تعتبر كل منها نفسها ارقى من الاخرى ، وما دام المسؤولون البيض والسود عاملين لاثارة حفيظة الشعوب ضد بعضها بعضاً ، وما دام المعسكران الكبيران غير مقتنعين بضرورة انهاء الحرب الباردة فعلاً ، وما دام المستعمرون الاوربيون غير معترفين ، ان عهد الاستعمار قد ولى ، هذه المرة ، الى الابد .

***

مشاكل ومهمات

علماء الاقتصاد والعلماء والفنيون متفقون على ان التخطيـــط اصبح ضرورة في كل الميادين . بل ان هذا التخطيط ، في رأيهم ، لا يكفي اذا نفذ على مستوى دولة واحدة ، بل يجب ان يشمل القارات جميعها . ان البحاثين المنعزلين وراء جدرانهـــم ومكاتب عملهم ، في طريق الزوال . والجنرالات العسكريون لم يعودوا يقودون جيشاً قوميـــاً ، بل جيوش عدة امم مجتمعة . وما الفائدة من تعداد الامثلة ؟ فاوروبا ، او على الاصح ، بعض دول اوروبا تعيش اليوم في ظل السوق المشتركة . واذا لم يتحد البروليتاريون بعد ، فان الرأسماليين قد فهموا ان في الاتحاد قوة ، كما ان دول المعسكر الواحد تشكل وحدة تكمل كل منها الاخرى.

بقي على دول افريقيا ان تسير في هذا الطريق ، ان هـذا ليس امراً جديداً ، وكثير من المسؤولين الافريقيين مقتنعون بهـــذا ، ولكن عليهم ان يستفيدوا من اكثر تجارب القرن العشرين اهمية . ان كل بلدان القارة السوداء حتى الغنية منهـــا ، لا تزال بلداناً متخلفة . ان مشاكلها متشابهة ينبغي حلها . كما ان هناك مهمات مماثلة يجب القيام بها .

ولن يستطيع اي بلد ان يحقق هذا ، بعزلته عن اشقائه . والحق انه ليس من الممكن التحدث عن العزلة لان كثيراً من هذه البلدان لا تزال مرتبطة بالدولة التي كانت تستعمرها ، اما التي ابتعدت عنها فانها تعتمد في برامج تطوير اقتصادها الى حد بعيد على الولايات المتحدة او الاتحاد السوفياتي ، وفي بعض الاحيان عليهما معاً . (١)

ولكن هذا ، كما يظهر يضعف افريقيا ، بدلاً من ان يقويها على الصعيدين السياسي والاقتصادي . فانها تطيل امد السيطرة الاجنبية في بعض المناطق نظراً لانشغال دولها في مخاصمة بعضها بعضاً .

ان كل ما يوضع على بساط البحث في هذه المنطقة من العالم يبحث على الصعيد الافريقي وحده ، لان كل دول افريقيا ، وعلى الاخص الدول المستقلة منها ، تلاقي المشاكل نفسها : التخلف وقلة الفنيين ، عدم استثمار الثروات الطبيعية الكامنة . وهذا يفترض ان عليها ان تتحد لانجاز العمل وقيادته نحو نهاية طيبة . ولسوء الحظ ، لم تتوصل دول افريقيا بعد الى هذا الحل . ان انقسام القارة الافريقية الحاضر ، يؤخر الانجازات اللازمة لكل دول افريقيا . وسأعود بعد قليل ، الى انفراط اتحاد مالي ، الذي كان على الصعيد الافريقي كارثة حقيقة . وقد تطوع موديبو كيتا ، بكثير من الجرأة والحماس لمعالجة الصعوبات التي يجابهها وطنه منذ الانفصال .

لقد وضع موديبو كيتا برنامجاً مستعجلاً اهم ما يحتوي عليه : استصلاح اكبر قسم ممكن من الاراضي وزراعتها ، وخصوصا زراعة

---

(١) وهذا هو حال الدول الاسيوية الافريقية ، التي تنتمي الى كتلة الحياد .

الرز لاسكان العائلات السودانية ، التي طردت من السنغال ، ايجاد اعمال جديدة لاكثر من مئة عامل اصبحوا ، بعد احداث آب سنة ١٩٦٠ عاطلين عن العمل ، اعادة تنظيم المصانع الموجودة في ما كالا لصنع محطات الارسال اللاسلكية ،والدراجات،والمفروشات وشراب الفواكه الخ ... ، ايجاد ادارة للمواصلات البرية وتنسيق وسائل المواصلات الموجودة .

وسيتطلب تحقيق هذا البرنامج ، ولاشك سنوات طوالاً . وقد كان من الممكن ان يتم،لولا انفراط الاتحاد،وكانت كايس اليوم مدينةمزدهرة، بدلاً من ان تكون مرفأ في حالة النزاع . ان المنطقة لا تتصل بباماكو الا بقطار يجري بينهما مرة كل اسبوع . ان محطاته ، التي لايعتنى بها ، في حالة مخيفة ، منذ ان قطعت العلاقات مع السنغال . وكانت آخر مرة سار فيها القطار يوم ان عاد يحمل عائلات الموظفين الماليين الذين كانوا في دكار . اما نهر السنغال ، وهو نهر غير صالح للملاحة الا جزئياً ، فقد كان يكفي لايصاله الى كايس بناء سدين:سد داغانا ، وسد غوينا. ان تصميات هذين المشروعين لا تعود الى وقت قصير . وها قد مضت خمسون سنة والمشروعان ينامان في الادراج وفي حزيران سنة ١٩٥٩ اخرجا وبدأت دراسة امكانية تحقيقها خلال انعقاد غرفة التجارة في سان لويس . وكان السيد ما مادو ضيا ، يرئس المناقشة . اما الآن فقد اعيد كل شيء الى مكانه . ان اخصب اراضي جمهورية مالي لم تعد تعطي ما كانت تعطيه . فالاراضي التي كانت تعطي الفي كلغ من الزيت النباتي في الهكتار ، لم تعد تعطي الا ثمانماية وخمسين كلغ . واضيف مشيرة الى ان اسعار السلع الاستهلاكية المستوردة قدازداد بنسب كبيرةمنذ انلم تعد

دكار المرفأ الطبيعي المفتوح على البحر لكل السودان . ان شحن البضائع عن طريق ابيجان يكلف اجوراً مضاعفة لان المسافة مضاعفة . كما ان اسعار المنتجات المحلية قد ارتفعت ايضاً .

ان الشيخ انتا ديوب ، المدرس في المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء ، وقد تكلمت عنه سابقاً ، يرسم في مبادئه صورة لمخطط تصنيع يشمل القارة الافريقية كلها . ولذلك فانه ليس من المدهش ان نرى الاغلبية الساحقة من الطلاب والمثقفين في افريقيا الغربية الفرنسية السابقة وافريقيا الاستوائية الفرنسية السابقة ، تؤمن بمبادئه . ان ما يدعو له جد خلاب يسحر الشبان ويثير فيهم الحماس وهم الذين ينتظرون كل شيء من المستقبل . لقد فهم ديوب ان عليه ان يرمي بكل ثقل افريقيا في الميزان ليعادل ثقل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والدول التي تدور في فلكيهما ،وليوازن بين ثقل افريقيا التي تسير نحو وحدتها والصين الشعبية بملايينها.انه يفكر وكأن افريقيا الموحدة قد وجدت ،فيرسم على طول الشاطىء ، بين ابيجان ودكار صوراً لمنشآت تدار بطاقة مولدة من مياه البحر ، ويهتم بالاستفاده من براكين الكمرون وكينيا ، ويجعل من حوض نهر الكونغو روهراً (١) افريقيا جديدة . ولايترك الشيخ انتاديوب اورانيوم الحبشة ونيجريا والكاميرون وغيرها ، ولا يعير ادنى اهتمام الى ان الدولة الوحيدة التي تستطيع استثمار مناجم هذا المعدن في اراضيها ، في الوقت الحاضر ، هي اتحاد جنوب افريقيا ، كما

---

(١) الروهر *Rohr* اشهر المناطق الصناعية الالمانية ، تقع في القسم الجنوبي من المانيا في حوض الرين وفيها اكبر معامل الفولاذ الالمانية. وقد هدمها الحلفاء في الحرب واغرقتها مياه النهر ثم اصلحت بعد الحرب وعادت الى ما كانت عليه .

ان قلة الرساميل لا تزعجه على الاطلاق لانه يستعيض عن ذلك بالرأسمال البشري . وهـذا ما ذكره في كتابه الذي اشرنا اليـه في السابق « الاسس الثقافية والتقنية والصناعية لدولة افريقيا المتحدة . »

وتجاه هذه الاحلام ، التي تعيش في قلب كل افريقي ، هناك الواقع. ان جميع دول افريقيا قليلة السكان ، مـا عدا نيجيريا ، حيث تبلغ كثافة السكان في بعض المناطق مئة نسمة في كل كلم مربع . ولكن نيجيريا تنفرد في هذا الامر . يكفي ان نعدد كل بلدان افريقيا التي تنطق بالفرنسية فكثافة السكان في الكيلومتر المربع هي ١٣,٩ فى الداهومي ، ١٢,١ في فولتا العليا ، ١١,٤ في السنغال ، ١٠,٣ في غينيا ، ٧,٧ في شاطيء العاج ، ٣ في مالي ، ٢ في نيجر ، ٠,٦ في موريتانيا .

ان بلاغة هذه الارقام تكفي وحدها دون اى تعليق . ان ديوب ، و كل الطلبة الذين يدرسون في الصين الشعبية ، والذين يزداد عـددهم باضطرار ، معجبون جداً بمنجزات الصينيين لانهم يتساءلون : « لماذا لا نقوم بمثل ما قاموا به » متناسين ان في الصين وحدها من السكان مـا يزيد ثلاثة اضعاف عن مجموع سكان كل قارتهم ، وان افريقيـا ، اذا ارادت ان تقوم بما قامت به الصين ، عليها ان تشكل على الاقـل ، اتحاداً فدرالياً . لتستطيـع ان ترمي هذا الرأسمال البشري في الميدان ولو على نطاق اضيق من النطاق الصيني .

ان ماوتسي تونغ يجند الملايين لبناء سد ، او طريق ، فيأتيه العمال من كل حدب وصوب في هذه البلاد الواسعة الآهلة . اما في افريقيا ، فان الداهوميين لا يدخلون الا نادراً الى شاطيء العاج ، بعد مذابح تريشفيل ؛ والماليين لا يذهبون للعمل في السنغال ، بعد الانفصال ،

وتشومبي يضايق الغانيين لدرجة تجعلهم يفكرون في سحب الفرقة الغانية من قوات الامم المتحدة في الكونغو . (١)

لقـــد رأيت ، قرب اكرا ، معملاً لتركيب سيارات فوكسهول وشاحنات بدفورد، يسيره، بجميع اجزائه، المواطنون الغانيون. وكذلك في غانا ، تجولت بين البيوت البيضاء في مدينة « تيما » وقد بنيت في خمسة اعوام على اطلال قرية مسكينة كان يسكنها الصيادون . وقـــد اثار اعجابي المرفأ الذي يحمل الاسم نفسه ، والذي بني مع المدينة في الوقت ذاته . وقد كلف هذا المشروع ١٨ مليون جنيه استرليني . امـــا سد فولتا العليا ، الذي انتهت اعمـاله التحضيرية ، فان بناءه سيؤمن لغـانا مضاعفة ما تملكه من الطاقة الكهربائية مئة مرة ، وستبدأ حكومة غانا في تشييـده هذه السنة ، بالاضافة الى انه يتيح لها استخدام منتجاتهـا من البوكسيت لصناعة الالومينوم . وتبلغ تكاليف هذا المشروع ٧٥ مليون جنيه تقريباً . وقد بلغ ما دفعته غانا لوحدها حتى اليـــوم ٣٣ مليوناً اي ما يقل قليلاً عن نصف تكاليف المشروع .

ولكن دولة الدكتور نكروما اغنى دولة في غرب افريقيـــا ، باستثناء نيجيريا التي لا تزال حديثة الاستقلال . ان لغانا كميات ضخمة من الذهب موضوعة في بنك انكلترا . هذا عدا ما في مناجمهـا من هذا المعدن الثمين . ولا شك انه اذا تكلف المسؤولون في بقية الدول عناء التفتيش عن المعادن ، فانهم سيجدون في كل افريقيـــا الذهب والماس . ولكن احداً منهم لم يكلف نفسه بعد هذا الجهد ، على الاقل

(١) عندما اوردت مثل تشومبي ، لم اكن اقصد تبرير سياسة الامم المتحـــدة في الكونغو ، هذه السياسة المائعة التي كانت السبب في مقتل لومومبا .

بطريقة جدية ، بينما تستثمر غانا مناجم المعادن وغيرها . وهذا يعني ان دول افريقيا الباقية لا تستطيع ، كغانا ، ان تستغني عن بعضها بعضاً . اما بالنسبة للآلات البشرية ، فانه من المحال الاعتماد عليها قبل مضي سنوات، حتى ولو اتفقت كل هذه الدول على سياسة تشجيع النسل. لان هذه السياسة لن يكون لها اية نتيجة قبل مضي جيلين او ثلاثة .

ان الصين الشعبية تستطيع ان تستعيض عن الالات التي لا تزال تنقصها ، رغم مجهوداتها الفائقة في حقل التصنيع ، بالايدي البشرية . ولكن هذا ليس ممكناً في افريقيا . ان دول افريقيا تظل بحاجة الى رؤوس اموال لشراء الالات وانشاء المصانع .

ان رؤوس الاموال تتجه الان نحو اكثر المناطق « اطمئنانا » اي المناطق الغنية التي يحكمها رجال لا يخيفون اصحاب رؤوس الامول . وليس من قبيل الصدفة ان يكون شاطىء العاج ، رغم غناه الطبيعي ، قد تلقى من فرنسا مساعدات اكثر من كل « ممتلكاتها فيما وراء البحار » مجتمعة . وقد اختارته كثير من الشركات الفرنسية لتوظف فيه اموالها .

وعلى العكس ، فان نكروما الذي تتوطد زعامته باطراد ، داخل وخارج الحدود الغانية ، ويسير على هدى سياسة غانية افريقية ، لا يثير في اصحاب رؤوس الاموال الاطمئنان الذي يثيره واحد كهوفويه بوايني ، لا يحتاج الى ادلة على ولائه لفرنسا . وقد كوفىء هوفويه على ولائه هذا ، ويكفي لاثبات هذا الامر ان ندرس الارقام التالية : فقد ارتفعت ارقام الاعمال في شاطىء العاج منذ سنة ١٩٥٤ بنسبة ١٥٠٠ مليون فرنك فرنسي قديم كل سنة . وقد ارتفع عدد المؤسسات فيه الى خمسين مؤسسة عام ١٩٥٩ ، بينها ثلاثون مؤسسة تزيد موازنتها على

مئة مليون فرنك افريقي . بالاضافة الى ان سبعاً او ثماني من هـــذه المؤسسات الثلاثين تزيد موازنتها على ٤٠٠ مليون فرنك افريقي . وفي عام ١٩٥٨ صدّر شاطىء العاج ٦٥٠٣٤٤ طنـــاً من البضائع تبلغ قيمتها الاجمالية ٣١٤٩٢ مليوناً من الفرنكات الافريقية. ويزداد انتاجه الزراعي باستمرار . وسنقصر بحثنا على الكاكاو والموز والقهوة .

كان شاطىء العاج ، في عام ١٩٣٩ ، ينتج ٥٠٠٠٠ طن من الكاكاو في السنة ، وقد ارتفع الانتاج الى ٦١٠٠٠ طن عام ١٩٥٠ . اما زراعة الموز ، فقد بدأت فيه عام ١٩٣٤ وقد صدّر ٤٦٠٠٠ طن منه ، قيمتها ١٢٧٤ مليوناً من الفرنكات الافريقية ، اما زراعة الاناناس ، فلم يباشر بها جدياً الا في عام ١٩٤٩ . وقد صدر ٩٩٤ طناً من الفواكه الطازجة بالاضافة الى الفواكه المجففة والمعلبات. وكذلك ارتفع انتاج القهوة بنسب متماثلة .

اما في السنغال ، فرغم التقدم الاكيد ، ورغم حب سنغور لفرنسا فان الوضع اقل بريقاً . ولكن العواطف الطيبة تلاقي مكافأتها . وهكذا تشتري فرنسا الزيت النباتي من السنغال بسعر يتراوح بين ٢٢ و ٢٥ فرنكاً افريقياً للكيلوغرام ، بينما لا تدفع الى مالي الا ١٤ فرنكـــاً افريقياً . ولكن السنغال لايزال يعتمد حتى الان طريق الزراعة الموحده، رغم كل الاخطار التي تنشأ عن ذلك . وبتعبير آخر ، يعتمد السنغال على زراعة الاراشيد (١) والحق ان الحكومه تهتم بتنمية زراعات اخرى وخصوصاً زراعة الارز، وفي السنغال ثلاث مناطق تصلح لزراعة الارز وهي : منطقـة النهر ، (نهر السنغال) وسيني سلوم ، وكازامانس . ولكن هذه الزراعة لم تنجح بعد بصوره نهائية ، فقد اصيب الموسم عام ١٩٥٩ بالقحط نتيجة للجفاف في منطقـة سيني سلوم ، وفشل في وادي

(١) نبات افريقي يشبه الفستق الحلبي او الفستق السوداني ، ويستخرج منه زيت الاراشيد .

السنغال لان ري الاراضي بشكل فعال ، يتوقف على الاسراع في بناء سد داغانا ، اما في كازامانس فان هذه الزراعة لا تزال تنتظر بناء مركز تجريبي لم يباشر به حتى الان .

وقد نشرت مفوضية الدولة للاعلام والصحافة والاذاعة، في الجمهورية السنغالية ، نشرت تقريراً بمناسبة انعقاد المجلس التنفيذي للاتحاد الفرنسي[1] في دورتـــه السادسة . يقول التقرير بلهجة رسمية حية وهـو يتكلم عن موضوع المراعي والحيوانات :

« ... ومن جهة اخرى ، تشكل المراعي قوة كامنة كبيرة ، ولكنها لاتزال ، في غالبيتها غير مستثمرة . فمن اصل قطيع من البقر ،مؤلف من مليون ونصف المليون ، لاتباع الا بنسبة ضئيلة جداً، ولا يستخدم في الزراعة والفلاحة ، الا القليل . ومع ذلك فان ما يمكن ان تجنيـه البلاد من هذا القطيـع ، اذا احسن استقلاله ، يتراوح بين مليار ومليار ونصف من الفرنكات الافريقية ، اي مـا يعـادل ٣ ٪ من الانتاج الزراعي الاجمالي .

« وفي هذا الموضوع نفسه ، احتاجت البلاد عام ١٩٥٩ الى تسعة الاف طن من المنتجات الحليبية ، استوردتها من الخـارج . وهي تستطيـع الاستغناء عن ذلك لو احسن استثمار الحيوانات الموجودة في السنغال ... »

اما في الميدان الصناعي ، فان الامر لا يزال يقتصر حتى الان على لجان الدرس والامال ، باستثناء مصفاة الزيوت في « روفيسـك » وبعض معامل النسيج القليلة ، دون ان ننسى مؤسسة او مؤسستين ،

(١) الاتحاد الفرنسي ، بدعة اتى بها ديغول ليحاول اطالة امد سيطرة فرنسا على مستعمراتها السابقة ، كالكومنولث البريطاني :وهو اسمي اكثر منه عملي .

غير فرنسيتين انشأتا فروعاً لهما في السنغال (١) . وهذا لا يكفي لامتصاص البطالة التي تطال على اقل تقدير عشرة الآف شخص ، منهم ستة الاف وخمسماية في مدينة دكار وحدها ، ولا يكفي وحده لرفع مستوى حياة جميع السكان ولو بنسبة بسيطة .

ان الشيخ انتا ديوب ، في مبادئه التي تقوم على التوظيف البشري ، يعتمد كثيراً على فنيين افريقيين في طور التكوين .

وطبيعي ان ليس هناك ما يمنع الشباب الافريقي الناهض من بدء العمل منذ الان . ان كل المراقبين الحياديين يقفون مندهشين امام السرعة التي يتعلم بها الطلاب الافريقيون ما يلقيه المعلم امامهم . وانا اتذكر الان زيارة قمت بها منذ ثلاثة اعوام ، الى مستشفى جورج السادس في نايروبي ، كنت الاحظ طلاب علم الحياة منحنين ، في مختبراتهم ، على انابيبهم وتجاربهم . وقد اكد لي الطبيب الرئيس ، وهو انكليزي ، ان الكثيرين منهم اتوا سيراً على الاقدام من مسقط رؤوسهم ، مجتازين في بعض الاحيان مسافة مئة كيلومتر ، وان منهم من لم يكن يعرف الكهرباء والزجاج .

لحسن الحظ ، لم نعد الان في عهد السيد « فنلان » حاكم جزر المارتينيك في القرن الثامن عشر ، كتب هذا لأحد اصدقائه قائلاً :

ومع ذلك انا لا اريد ان اعلم زنوجي ، لان العلم في يديهم سلاح خطير يدفعهم الى التفكير والى رؤية المظالم التي نرتكبها نحن

(١) كشركة باتا التشيكية للاحذية ، وقد بنت لعمالها مساكن حديثة في منطقة اصبحت تدعى مدينة باتا في روفيسك

البيض ، ضدهم (١) . »

ومع ذلك فان من الصعب ان نحول الامين ، بين ليلة وضحاها ، الى فنيين ، رغم حيوية هذه القارة الرائعة وحيوية سكانها .

من الضروري انتظار نضوج الاجيال الجديدة ، ولكن افريقيا ، لاتستطيع ان تسمح لنفسها بالانتظار كثيراً . لقد بذل الاوربيون ، او على الاصح المبشرون ، مجهودات كبيرة في حقل التعليم ، وهذا ما لا ينكره احده . ولكن مايلامون عليه فعلاً هو قلة المدارس . ان المدارس لاتضم حتى الان كل من يحق له دخولها ، حتى في السنغال ، التي تدعي عن حق ، ان فيها اكثر نسبة من المتعلمين وهنا ايضاً تتكلم الارقام ببلاغة اين منها بلاغة الكلمات :

كان عدد المدارس في السنغال ، وفيه مليونا نسمة تقريباً ، خمسماية وخمساً وستين مدرسة ابتدائية (رسمية وخاصة) تحتوي على ٢٣٤١ صفاً فيها ١٠٦٩١١ طالباً منهم ٧٢١٢٥ صبياً ٣٤٧٨٦ فتاة . وهذا يمثل نسبة ٣١٫٦ ٪ من الذين يحق لهم دخول المدارس ٤٢٫٤٠ ٪ صباناً و ٢٠٫٨ ٪ فتيات ، وبلغ عدد المدارس الاعدادية : ٤٧٠ مدرسة تحتوي على ١٩٠٩ صفوف فيها ٨٨٩٠٦ تلاميذ منهم ٦١٦١٧ صبياً و ٢٧٢٨٩ فتاة ، وهكذا ترتفع النسبة هنا الى ٢٦٫٢٨ ٪ من الذين يحق لهم دخول المدارس الاعدادية ٣٦٫٨ ٪ صباناً و ١٥٫٧ ٪ فتيات . ويجدر بنا ان نضيف الى ذلك ٩٥ مدرسة خاصة تحتوي على ٤٣٢ صفاً فيها ١٨٠٠٥ تلاميذ منهم ١٠٥٠٨ صبيان و ٧٤٩٧ فتاة . وهذا ما يضيف الى النسبة ٥٫٣٢ ٪

---

(١) اورد هذا النص السيد جوزيف بوغندا ، رئيس اوبنغي شاري ، واحد امال افريقيا ، وقد قتل في حادث طائرة « لم تعرف اسبابه »

اي ٥،٦ ٪ صبياناً و ٥ ٪ فتيات . ان هذا جد قليل . امـــا في التعليم الثانوي والعالي فان الارقام ، طبعاً اقل من هذا بكثير .

وقد احرز شاطىء العاج بعض التقدم في هذا الميدان ، فبعد ان كان عدد المدارس عام ١٩٢٧ ، خمساً واربعين مدرسة ابتدائية تحتوي على اثنين وخمسين صفاً فيها ٢٦٠٠ تلميذ ، بلغ هذا العدد ٥٢٤ مـدرسة رسمية و ٤٠٨ مدارس خاصة ، عام ١٩٥٨ ، تحتـوي على ٢٧٠٠ صف فيها ١٢٥٠٠٠ طالب .

اما في التعليم الثانوي فقد كان التحسن رائعاً ايضاً . فبينما كان عدد الطلاب المسجلين في المدارس الرسمية ١٣٨٦ طالباً عام ١٩٥٣ ، فقـــد ارتفع هذا العدد الى ٣٤٥٤ عام ١٩٥٨ . وقد ازدادت نسبة الفتيات قليلاً عنها في السابق .

ورغم ذلك ، فقد اعترف السيد ارنست بوكا ، عام ١٩٥٨ ، وكان عندئذ وزيراً للتربية في شاطىء العاج ، ان نسبة من يدخلون المدارس في هذا البلد الغني لاتزيد على ٣٠ ٪ ممـن هم في سن الدراسة . ولم تزدد هذه النسبة كثيراً في هذه الاعوام الثلاثة الماضية .

ولنر بسرعة الآن ، الوضع في جمهوريتي مالي وغانا . ويجب ان اضيف تواً ، انني لم استطـع الحصول على احصائيات حـــديثة في كلا البلدين . والقضية الآن مجال بحث في جمهورية مالي ، لان اراضيهـــا واسعة شاسعة ، ذات كثافة ضئيلة في عدد السكان . ان القرى بعيدة في غالب الاحيان، عن بعضها بعضاً ، وطرق المواصلات ووسائلها في حالة سيئة جداً، هذا اذا وجدت . والواقع ان هناك كلية واحدة في باماكو تحضر طلابها لنيل البكالوريا ، وكلية للبنات تحضر طالباتهـــا للشهادة

نفسها ، ودار معلمين في كاتيبوغو ، وقد اعيد فتحها سنة ١٩٦٠ ،واربع دور اخرى للمعلمين تعد الطلاب لنيل الشهادة التكميلية الاعدادية وست مدارس اخرى تكميلية تحضر للبكالوريا ، المنهاج الاول ، بالاضافة الى « مدرسة » ([1]) تتولى تعليم اللغة العربية في تومبو كتو . ولنشر اخيراً الى ثلاث مؤسسات خاصة : كلية للبنات ، واخرى للصبيان ، ودار معلمين ، وجميعها تابعة للبعثة الكاثوليكية ، وهي موجودة في سيكاسو .

اما التعليم التقني او المهني ، فانه محصور بكليتين مهنيتين الاولى رسمية والثانية خاصة . ويبلغ عدد طلابها ٢٢٣ صبياً . وهناك مركز للتدريب يضم ١٥٩ طالباً بينهم ١٣ فتاة ، ومدرسة للاشغال العامة ، فيها ١٩٤ طالبا ، وهي بالطبع لا تضم اية طالبة . واخيراً هناك مركز للحرفيين السودانيين في باماكو ويتردد عليه ثمانية واربعون طالبا .

اما في اكرا ، فالظاهر انهم لم يعتمدوا بعد اية احصاءات دقيقة . وقد علمت ، من وزارة التربية ، ان عدد المدارس الابتدائية في غانا ، قد بلغ عام ١٩٦٠ — ١٩٦١ ، ٣٤٥٢ مدرسة رسمية ، بالاضافة الى بعض المدارس الخاصة . وهذه المدارس معدة للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين السادسة والثانية عشرة ، وبلغ عدد المدارس التكميلية الاعدادية ١١٧٧ مدرسة للطلاب الذين تتراوح اعمارهم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة ؛ وهناك ايضا ٥٩ مدرسة ثانوية يدخل اليها الطلاب بعد قضاء سنتين في المدارس التكميلية . وهذه المدارس الثانوية التي تبلغ فترة الدراسة فيها خمس سنوات تخرج طلابا مؤهلين لدخول الجامعات . وعندما ينتهي الطالب من دراسته فيها ، ينال شهادة تؤهله لدخول الجامعة ،

[1] وهي تسمى بهذا الاسم : مدرسة .

او الكلية التقنية في كوماسي . وقد بلغ عدد طلاب هذه الكلية سنة ١٩٥٧ ستماية طالب .

وتجدر الاشارة هنا الى ان الدراسة الابتدائية في غانا مجانية ، امـا الدراسة الثانوية ، فليست كذلك . وتوزع الحكومة والبلديات ، بعض المنح ، ولكن بشكل ضيق . وقد تضاعف عـــدد تلاميذ المدارس الابتدائية ثلاث مرات بين سنة ١٩٥١ وسنة ١٩٥٦ .

ان المدارس قليلة في افريقيا . فالعادات التي خلفها الاستعمار لا تزال تعيق تحسن الاوضاع . وجامعة دكار الرائعة اسطع برهان على ذلك . فهي من ناحية عدد افراد الهيئة التعليمية توازي جامعتي كان وغرونوبل . وهي لا تزال تابعة لفرنسا ، او على الاصح ، معارة لفرنسا من قبل الجمهورية السنغالية ، فالادارة فيهـا فرنسية والعميد فرنسي . والاساتذة ، ومن ضمنهم الاستاذان الافريقيان اللذان يدرسان فيهـــا الجغرافيا وعلم النفس ، يخضعون للنظام ذاته ، ويتمتعون بالحقوق ذاتها التي يتمتع بها زملاؤهم الفرنسيين . ولكن الجامعة الافريقية تعتبر بالنسبة للحكومة ، جامعة سنغالية ، وبهـــذه الصفة ، تخضع للقوانين السنغالية . وقد عبر السيد ناردين ، العميد المساعد ، عن هذا الوضع فوصفه بدبلوماسية قائلاً : « ان الوضع جد دقيق » .

المدارس قليلة ، وخصوصا وقبل كل شيء ، في داخـــل القارة . « فالممدنون » الاوروبيون لم يهتموا مطلقـــا ولم يحبوا ان يجازفوا بالاستقرار داخل البلاد . كل ما في الامر ، ان بعض الفرق الطبية المتجولة ، كانت تغامر فتزور ، في اوقات منظمة الى حد ما ، المناطق المجهولة البعيدة ، وكانت تعود بسرعة ، بعد ان تقوم بالتلقيح وتوزيع

قوارير الادوية .

وبالطبع لا يستطيع المدرس ان يقوم بمثل هذا العمل ، ان ما يلزمه ، سواء اراد ام لم يرد ، ان يبقى في مكانه ، وهـذا ما لم يكن يشعر بالرغبة فيه الا القلائل ، خوفا على سلامتهم الشخصية من جهة ، ولقلة التسليات ووسائل الترفيه ، من جهة اخرى .

وفي هذا المضمار ، كان حظ مالي اسوأ الحظوظ . ففي ميدان التعليم كما في بقية الميادين الاخرى ، كان السادة الفرنسيون المستعمرون يعتبرونها الجزء الخلفي من السنغال . ان الشاب المالي الذي يملك المال ، يستطيع تحصيل العلم في دكار . هذا كل ما في الامر . وعليه ، بالطبع ، ان يتدبر امر سفره اليها : اما المنح فكانت لا تصيب الماليين الا نادراً .

ولهذا ، فان احداً لن يعجب اذا ما كان المستعمرون المدنيون والعسكريون ، يحاولون اظهار عملهم كاملاً ، او على الاقل على احسن ما يمكن للانسان ان يقوم به . ولم يكونوا يقصرون في التجول مع الزوار على مدارسهم ومستشفياتهم ويقومون بارسال صور جميلة الى المتروبول . وطبيعي ان المدارس والمستشفيات لا يمكن ان تكون من نسج خيالهم ، او مجرد زينة لمسرح كرتوني . فهي منتشرة على طول الشاطيء وفي المدن الكبيرة . وقد بنيت دار المعلمين « وليم بونتي » التي تخرج منها كثير من الشخصيات التي تمسك اليوم بمقدرات افريقيا ، بنيت على جزيرة « غوريا » التي لا تبعد اكثر من ساعة عن دكار بطريق البحر . ومدرسة ارشيموتو الفنية ، وكوروله بو للممرضات ، وهما مثار اعجاب وفخر الغانيين ، لا تبعدان اكثر من عشرين كيلومترا عن اكرا . ويفتخر سكان اكروبونغ بانهم يملكون اقدم كليات شاطيء

الذهب . وقد انشأ هذه الكليات المبشرون البروتستانتيون القادمون من الجزر البريطانية. ورغم ان اكروبونغ تقع على رأس جبل عال ، فان مسافة خمسين كيلو مترا على الاكثر تفصلها عن العاصمة الغانية.

والحق انه لم يباشر بعمل جدي مثمر ، لاصلاح هـذا الحال وايجاد المدارس الكافية لاحتواء الاطفال ، الا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لقد بدأت اوروبا العجوزة تحس ، رويداً رويداً ، ان الرياح قد بدأت تغير اتجاهاتها ، فارادت ان لا تترك وراءها ماضيا ملوثا مثخنا بالتبعات.

وقلة المعلمين امر لا يقل خطورة في افريقيا عن خطر قلة المدارس . وهو راجع الى اسباب عديدة . والحق ان المستعمرين لم يظهروا جميعهم تبلد الضمير الذي اظهره البلجيكيون في الكونغو ، حيث لم يكن في هذا القطر الا سبعة عشر رجلًا يحملون شهادة البكالوريا ، بعد ثمانين سنة من الاستعمار . ولكن من الواجب ان نعترف ان المستعمرين الفرنسيين والانكليز ، وزملاءهم البلجيكيين ، كانوا يحاولون الاقلال من عدد المعلمين في افريقيا،بطرق ووسائل بشعة فاضحة . فالفرنسيون مثلًا كانوا يسمحون للطبيب المدغشقري ان يمارس مهنته في مدغشقر ، ولكنهم لم يكونوا يسمحون للمعلم المدغشقري ان يعلم الاطفال المارتينيكيين والتونكينويين فيجعلون منه مدرسا في اراضي فرنسا . كان الجميع يقولون اننا اذا تركنا هؤلاء المثقفين يذهبون الى بلادهم ، فلا يمكن التنبؤ بالنتيجة !

وهذا يظهر ان الحذر الذي اورثهم اياه السيد فنلان ، حاكم المارتينك ، لم يزل يثقل كاهلهم وافكارهم. بالاضافة الى ان تشغيل المعلمين السنغاليين والغينيين والغابونيين في فرنسا ، احسن دعاية ممكنة لاثبات

لا عنصرية المستعمرين بقبولهم السود في مـــدارسهم . بالاضافة الى ان الاستعمار كان يفضل ارسال المـــدرسين من المتروبول الى البلد المستعمَـر ، لانه يثق نوعاً ما بنتيجة الثقافة التي يلقنها هؤلاء للاطفـــال السود . (١)

وبعد ان حصلت الدول الافريقية على استقلالهـا ، فضل كثير من المدرسين الاوروبيين العودة الى اوطانهم . وحدث هذا على الاخص في غينيا . (وقد طرد بعض المدرسين منها ، لاسباب سياسية ، من قبـل الحـكام الجدد) واخيراً من الواجب ان نشير الى ان موقف الحكومات الافريقية من الهيئة التعليمية لا يشجع دائماً هؤلاء الذين ارادوا البقاء .

فحكومة شاطىء العاج مثلاً ، تعتقد ان المدرس المبتدىء ينال ما يستحقه ، اذا دفعت له مبلغ ١٥٠٠٠ فرنك افريقي في الشهر . وقـد يبلغ راتب المدرس الذي نال الشهـــادة التعليمية ، ٢٥٠٠٠ فرنك . بالاضافة الى انه يحدث احياناً ، ان تبني الحكومة في داخل البـــلاد ، مدرسة وتنسى ان تهيىء للمدرس وعائلته مسكنـاً . واخيراً ، يشكو المدرسون من عزلتهم . وقد حدثني مدرس شاب في العشرين من عمره ، عن العزلة التي يعيش فيها . فالحكومة ترسل الى اقاصي البلاد الشبان الذين لا تعجبها افكارهم السياسية . وهذا الشاب الذي حدثني ، اخبرني انه يضطر في اخر كل شهر ، لقطع مسافة ثلاثين كيلومترا على دراجته الهوائية ، ليقبض معاشه . وانا اؤكد هنا ان هذا الامر ليس سهلاً على

(١) من الضروري ان نعترف ان الانكليز لم يكونوا يطبقون هذه السياسة الا نادراً ، ونحن نعلم ان جومو كينياتا زعيم كينيا الوطني ، قد نال لقب دكتور من جامعـة لندن ، وجوليوس نياريري ، زعيم تنجنيقا قد احرز شهادة الحقوق من جامعة ادنبره .

الاطلاق وسط غابة كثيفة متشابكة . وقد اخبرني ايضاً عن حالة زملائه الذين لا يملكون دراجات ، ويضطرون لقطع المسافة سيراً على الاقدام لينالوا رواتبهم .

في جميع الميادين ، تنتظر افريقيا مجهودات مماثلة ، في ميدان الصحة العامة ، كما في ميدان التعليم . ففي الميدان الاول ، حقق الاوروبيون ، في زعمهم منجزات هائلة . ولكنها غير كافية ، خصوصاً اذا توصلت الحكومات الى تطبيق سياسة تستهدف زيادة عدد السكان . ان المدن الكبيرة، مراكز التجمع البشري ، تحتوي على مستشفيات حديثة التجهيز ومراكز مكافحة الاوبئة المنتشرة ، كالحمى الاستوائية ، والامراض الخطيرة كالجذام ومرض النوم . ولكن هذه التجهيزات نادرة او غير موجودة في الاماكن التي تكشر الطبيعة الافريقية فيها عن اسنانها ، على بعد فاصل قصير يمتد على طول الشواطىء .

وهذا صحيح بالنسبة لكل افريقيا . انني لن انسى ما حييت ذلك « المستشفى » الذي اتيحت لي فرصة رؤيته في بلدة من بلدان الحبشة الوسطى . كان « المستشفى » عبارة عن غرفة عارية وسخة ، مطروشة بالكلس الابيض . كان كل اثاثها عبارة عن طاولة ومقعد من الخشب .

واقتضى الامر ، في الساعة العاشرة من احدى الامسيات ، اجراء الاسعافات الاولية لاحد الجرحى . كانت العقبة الاولى ايقاظ الحارس، الذي لم يستيقظ الا بعد ضربات متعددة على الباب . وبعد ذلك ابتدأ البحث عن « الطبيب » المحلي . وانقضت عشرون دقيقة ، قبل ان يكلف نفسه مشقة النهوض ، ثم حضر والنعاس يغالب عينيه ، شعره مشعث يلبس قميصاً مبقعاً . واوقد الحارس مصباحاً زيتياً ، بينما كان

الطبيب يفحص الجرح . وكان العلاج يقتصر على رش مسحوق الد.د.ت.
ثم اعلن الطبيب بعد ذلك ان المريض في طريق الشفاء .

ان التضامن والتعاون بين دول افريقيا التي يزداد عددها باضطراد ، ضرورة ملحة لمعالجة هذه القضية ذات الاهمية القصوى . وهو كذلك بالنسبة لاصدقاء افريقيا . ولكننا لا يجب ان نتعامى عن الصعوبات التي تعترض تحقيق هذا الامر . ان الشيخ انتا ديوب وتلاميذه يقترحون توحيد اللغة . ولكنني سبق واشرت الى هذا الامر . فاية لغة يستحسن اختيارها كلهجة افريقية ، من بين اللغات المئتين والخمسين التي تتكلمها شعوب القارة من اقصاها الى اقصاها؟ لقد اخترع التجار العرب في السابق لغة « زواهيلي » وهي نوع من اللغة الافريقية مكونة من كلمات عدة لغات تستعمل في الشرق الافريقي. وقد نجحوا في فرضها على قسم كبير من سكان اتحاد جنوب افريقيا ، وروديسيا الشمالية والجنوبية ، وتانجنيقا ، وكينيا . ولكن اللغات المحلية لا تزال تنافس هذه اللغة الجديدة . اما في غرب افريقيا ، فان احداً لا يفهمها . ولذلك فان الصراع هنا سيكون اقوى بكثير منه في الشرق . هل تعطى الافضلية للغة بامبرا ؟ هل تختار المالينكية او الوولف ؟ ان هذا سيسبب صراعاً وتناحراً جديدين بين القبائل المختلفة . ان الحل الذي اختارته كل من مالي وغينيا وغانا ، والذي اشرنا اليه في السابق ، يظهر معقولاً اكثر ، وهو كما قلنا يفرض تعليم الفرنسية في مدارس غانا والانكليزية في مدارس كل من مالي وغينيا .

وكما كانت اوروبا تستعمل اللغة الاتينية كلغة اوروبية ، دون ان يحس احد بالغضاضة لذلك ، فان وجود لغتين من خارج افريقيا ، لن

يكون بالنسبة للافريقيين اشد وقعاً عليهم من وقع اللاتينية على اوروبا.

واخيراً فان الاتحاد الافريقي لن يتحقق، في رأيي ، دون تحقيق بعض الديمقراطية ، ان لم يكن الا للنتيجة التي تؤدي لها هذه الديمقراطية في امتزاج الشعوب بعضها ببعض. ففي هـــذا الروهر الكونغولي ، الذي وصفه ديوب ، يضطر السنغالي والمالي والغاني والغيني ، وبكلمة مختصرة ، كل افريقي ، للعمل جنبـــاً لجنب . وكلهـــم ليسوا على استعداد لقبول هذا الوضع الا عنـــدما يدفنون حزازاتهم التي تفصل القبائل بعضها عن بعض ، والدول عن جيرانها . وهذا لن يحدث الا اذا احس الجميع ان حقوقهم وواجباتهم متساوية . وهذا يفترض ان يكون باستطاعة الجميع التعبير عن ارائهم بحرية تامة .

اذن ،وفي الحالة الحاضرة ، ليس هناك اية دولة افريقية يمكن وصفها بالديمقراطية ، لقد اخبرني السيد ديوب اوباي وزير الاستعلامات السنغالي ان بلاده تعرف حرية الصحافة ، فقد الغيت الرقابة على الصحف منذ ١٥ تشرين الثاني ١٩٦٠ . وقد تباهى بالاشارة الى ان المعارضة تملك نشرة مطبوعة تظهر في المناسبات ! وقد سبق ان اشرت الى ان السيد سنغور وجد من الحكمة منع كل الاحزاب المعارضة . وقد تمكنت صدفة ، من الحصول على منشور وزعه حزب التجمع الافريقي في حزيران ١٩٦٠ اي قبل شهر من الانتخابات التي اعلن موعدها السيد سنغور والسيد ضيا. وكان كاتبو المنشور يحتجون على الطريقة التي نظمت بها هذه الانتخابات على درجتين .

ونجد هذا التردد نفسه عند المسؤولين الماليين ، امـــام الاساليب

الديمقراطية. وهذا واضح في تنظيم الجهاز الاداري الذي يمسك بالبلاد بين قبضته . فرؤساء القرى يعينون من قبل قواد الحلقات[1] . ويعين هؤلاء وزير الداخلية بناء لاقتراح المكتب السياسي للفرع السوداني لحزب التجمع الافريقي . وهكذا لا يستطيع اي معارض ان يصل الى مركزهم . ولكي يستطيع من لا يوافق الحاكمين على رأيهم الكلام ، نستطيع ان نقرأ في « اسور » الناطقة الرسمية والوحيدة :

« اذا كانت المناقشات العامة ذات فائدة لاتنكر ، عندما يريد اي حزب في المعارضة ، لفت الانظار الى اهدافه ، فان هذه المناقشات مفيدة وضرورية عندما يريد الحزب الوحيد تعميم اوامره وشعاراته ، لانها تعني تجميد هذه الاختلافات البسيطة وتضخيمها ، في جهاز الحزب الواحد ، عندما يتعلق الامر بمناقشة قضايا تستثير آراء مختلفة ولأن هذه المناقشات تساعد في اظهار الاختلافات وتطمس الاشياء التي تجمع المواطنين . وهناك امر خطير آخر : ان الاختلافات قد تنتقل الى الجماهير وتثير الفرقة في صفوفها ، وتنسف الوحدة السياسية ، وتضعضع الوحدة الوطنية . . . »

ولا يمكننا بعد هذا ان نؤكد ، بوضوح اكثر من هذا الوضوح ، انهم يعتبرون الديمقراطية خطيرة . اما في غانا ، فتصدر عدة جرائد ، ولكن اياً منها لا تسمح لنفسها بانتقاد الاوساجيفو . ومن غير المفيد ان نشير الى ان غانا تتبع نظام الحزب الواحد .

ومن البديهي ان هذه الديمقراطية اللازمة ، مرتبطة اشد الارتباط ، بارتفاع المستوى الثقافي عند الجماهير الافريقية . وهذا لا يمكن ان يتم دون تحسن عام في المستوى المعيشي . فكل شيء مترابط في هذه القارة

(١) وهم يقومون مقام القائمقامين والمحافظين عندنا .

كما هو في كل عالمنا الحديث . ان تعميم التعليم وتحسن مستوى معيشة الشعوب هما هدفان يمكن لافريقيا الموحدة التوصل اليهما . اما اذا بقيت افريقيا مفتتة متخاصمة فانها ستبقى ، لامد طويل ، ضعيفة على المستوى الاقليمي والعالمي .

* * *

البيض بين الماضي والحاضر

البيض ، منذ ستمائة سنة او اكثر ، مرتبطون تماماً بتاريخ افريقيا ، سواء أكان هذا من حسن او سوء حظ الافريقيين ؛ ومن الصعب جداً ان يتكلم المرء عن هؤلاء دون ان يتذكر اولئك . قد يكون من الجائز انه كان من الافضل لهم الا تطأ اقدامهم قارة لاتزال حتى اليوم تثير خيالهم وتسحرهم . كان يمكن بهذه الطريقة تجنب مئات المظالم والجرائم التي ارتكبت هناك . ولكن الانخراط في مثل هذه الفرضيات معناه العودة الى قضايا سخيفة مثل : ماذا كان يحدث لو كان انف كليوبترا اطول مما كان عليه ، وماذا كان يكون مصير اخت جان دارك لو كان لها اخت ما ؟

والحق ان الاوروبيين لم يبدأوا في معرفة البلدان الافريقية الا منذ اقل من قرن . فبحيرة فيكتوريا ، اكبر بحيرات افريقيا ، لم تكتشف الا في مطلع القرن العشرين . ولم يتوغل ليفينغستون في روديسيا وتانجنيقا الا حوالي ١٨٦٥ . ولكن البرتغاليين وصلوا الى غينيا منذ عام ١٤٨٠

وبعد سنتين استقروا بصورة دائمة ، حول منبع نهر الكونغو .ولم يتأخر الفرنسيون والهولنديون والاسبان والانكليز في اللحاق بهم . ونعيد الى الاذهان ان تقسيم افريقيا المبدئي قد تم في القرن الثامن عشر . وبعد هـــذا ، لم يكن الغزاة يعملون الا على زيادة رقعة الارض التي يستعمرونها ، سواء بالتعدي على حصة جيرانهم ، او باكتشاف مناطق جديدة .

وقد قلد الافريقيون السود كل طرق معيشتنا . لقد ورثوا عنا ، عاداتنا ونزواتنا ، (١) ثم ضخموها . وليس لدى الذين يتركون القرى ويسكنون المدن ، اي شيء افريقي . ان نايروبي واكرا (٢) صممتا على نمط العاصمة البريطانية . فالناس يعملون ويكسبون المال في مركز بشع صمم بشكل عقلاني تام ليعطي اكبر انتاج ممكن . امـــا المنطقة السكنية ،وامكنة الراحة ، فتقوم في الضواحي ، وسط الخضرة الممتدة حولها ، كضواحي لندن . لقد نجح الانكليز في تعليم سكان مستعمراتهم القديمة كل شيء ، حتى صنع ابشع انواع القهوة في العالم .

اما دكار ، فان فيها بعض الشبه بمدينة ليون . واذا كانت ابيجان تحفةهندسية معمارية ، فان البلاتو وكوكودي ، وهما احدث احيائها ، لا تمتان الى اللـــون المحلي بصلة ، اكثر من صلة الاميركية التي تلبس قبعة رعاة البقر .وتتنزه في شارع الشانزايزيه يوم احتفال القديسة كاترين .

(١) عندما يملك الافريقي بعض المال ، يسارع لشراء نظارات وقبعة امريكيـــة للدلالة على انه بدأ يسير في طريق النجاح الاجتماعي . اما السيارة فتأتي بعد ذلك .

(٢) ان مدينة باماكو تختلف تماماً . ويظهر ان المهندسين الذين صمموها يشكون تماماً في قدرة طراز ابنية اوروبا على تحمل وهج شمس افريقيا الحارة . وباماكو مدينة جد جميلة .

اذن فالبيض لا يزالون في افريقيا . ولا يزالون يقومون فيها بدور هام . لقد تخلوا او على الاقل في الظاهر ، في السنغال مثلاً ، تخلوا عن امتيازاتهم السياسية . ولكن وجودهم لا يزال عاملاً بارزاً ، اذا لم نقل اساسياً ، في مختلف الادارات . وهم يؤثرون على سياسة الاستيراد والتصدير بصفتهم ملاكي او مديري اكثر البيوتات التجارية نشاطاً . اما التربية والنشاطات الثقافية والاجتماعية فانها لا تزال ، كما كانت في السابق ، مرتبطة بهم . وهذا شيء طبيعي جداً . فالجمهوريات الافريقية السوداء الناشئة تجتاز اليوم فترة انتقالية . ونقل السلطات والصلاحيات لا يمكن ان يتم بين ليلة وضحاها . اذ انه من السهل ان يحتل المستعمرون البلاد وان يعطوها استقلالها ، ولكن من الصعب ان يعلموا الشعوب معنى الحرية وكيف تحكم انفسها . والحق ان فرنسا ، وخصوصاً بريطانيا ، لم تقصرا في هذا الواجب كما قصرت بلجيكا . (١) ولكن علينا ان نعترف ان عملها في هذا الميدان بقي ناقصاً الى حد كبير . فقد كان كل المسؤولين في البلاد التي اجتزتها يرددون دوماً ، وهم يمثلون النخبة المثقفة : « ان مهمتنا الاساسية ، هي محو العادات السلبية والاتكالية من نفوس الجماهير التي ورثت هذه العادات عن العهد الاستعماري . »

نستطيع ان نفهم بسهولة لماذا لم يهتم المستعمرون بتنمية حس المبادرة عند المستعمرين . بالاضافة الى ان هؤلاء لم يكونوا يشعرون بلذة العمل لانهم لم يكونوا يحسون انهم يعملون من اجل انفسهم .

(١) الشيء الذي يلفت النظر ان المستعمرات البريطانية القديمة اقدر وانضج على حكم نفسها من مستعمرات بقية الدول الاوروبية ، كما ان فيها نضجاً سياسياً وتقنياً لم تبلغه اية مستعمرة فرنسية واوروبية اخرى .

انا لا ادري ما اذا كان البيض سيبقون في افريقيا . ولكنني اعرف انهم الآن موجودون هناك ويظهر ان اكثريتهم لاتفكر مطلقاً في الرحيل ، حتى في اشد الظروف ازعاجاً . ولهذا ، فان الكلام عن افريقيا ، لا يمكن ان يكون شاملاً اذا لم نتحدث عنهم . ونستطيع ان نقسمهم ، بشكل عام ، الى اربع فئات :

الاولى : المستاؤون الذين لايكفون عن الشكوى من جحود الافريقيين الوطنين ، ويعتقدون ان كل شيء يسير من سيء الى اسوأ ، منذ ان استقل هؤلاء « الناس »

الثانية : المتكبرون المشبعون بفكرة التفوق ، وهم يقابلون كل عمل يقوم به الافريقيون بابتسامة شامتة .

الثالثة : الابويون غير النادمين الذين يقبلون الاوضاع الجديدة ويظهرون شفقتهم على عبيدهم .

الرابعة : الواقعيون الذين يتجرأون على النظر بوضوح الى التغيرات التي حدثت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية . وفي هذه الفئة نجد المثاليين الصادقين .

والواقع ان هذه الفئات ليست منفصلة تماما بعضها عن بعض . فالفاصل بين المتكبر والابوي بسيط جداً يكاد لايرى . كما ان المستاء لا يجد حرجا في صداقة بعض الافريقيين . فالتعب والخيبة قد يدفعا الشخص المعادي للاستعمار مثلا ، الى الظهور بمظهر الظالم نحو بعض الافراد والجماعات . ورغم ما في التقسيم الذي اوردناه من تعسفية ، ككل

محاولة من هذا النوع ،فانه يلخص جيداً العلاقات القائمة بين الجنسين.[1]
وهـــذه العلاقات لها تأثير ايضا على مستقبل القارة الافريقية . فما دام البيض مستقرين هناك ، فانهم يحتفظون بنوع من السيطرة على اقتصاديات وسياسة البلدان المستقلة ، وبهذا يستطيعون ان يعجلوا او يؤخروا كل اتحاد افريقي . واذا استثنيت الاقلية التي تنتمي الى الفئة الرابعة ، فانني استطيع ان اقول ان البيض لا يهتمون مطلقاً بالمساهمة في انشاء اتحاد يمتد من الصحراء الكبرى حتى راس الرجاء الصالح . وكان اهتمامهم منصباً في عام ١٩٦١ على انقاذ ممتلكاتهم والبقاء في اماكنهم ، ذلك ان العـودة الى اراضي المتروبول لا تعني شيئاً بالنسبة لهم . وهم ليسوا مخطئين تماماً في عدم اهتمامهم بهذه العودة . فالمناخ والمساحات الشاسعة ، والى وقت قريب ، التسهيلات المادية التي كانت مؤمنة لهم ، قد ابعدتهم عن جو اوروبا وحياتها . فكل شيء فيها يظهر امامهم ضيقاً يثير الرثاء . انهم يختنقون فيها . لقد تشربوا حب الويسكي والسيطرة ، فلم يعودوا يقبلون ان يحيوا خدمهم ، او ان يقفوا مرتجفين في ضجيج الجادات الاوروبية .

انهم يجهلون شخصية هؤلاء السود الذين يعيشون بين ظهرانيهـــم ، ولكن القارة السوداء انتقمت منهم باعجاز ،فشوهت شخصيتهم بدورها. ففي اي من بلدان افريقيا ، نجد ان هؤلاء البيض ، من كل الفئات التي

(١) وهذا يعني اننا قد استثنينا البيض في اتحاد جنوب افريقيا لانهم يشكلون فئة مستقلة بحد ذاتها . وهي فئة العنصريين الذين يعتبرون ان اللون له المكانة الاولى ويتوهمون ان الحضارة والرقي وقف على الجنس الابيض، ولا يدري احد ماذا ستكون عاقبة هؤلاء .

اشرنا اليها ، يجتمعون . انهم ليسوا دوران وديبون وسميث وباكر ، ولكنهم مثل نابليون في المنفى ، انهم مجرد رجال مستائين يغرقون احزانهم في الكحول او مغامرين غير راضين ، او اخيراً بورجوازيين صغار يتساءلون ، منذ زمن ، عن الهدف الذي جعلهم يأتون الى بلاد ما وراء البحار هذه .

في السنغال ، لا نجـــد الا قليلًا من فئة المستائين ، وبالفعل ليس هناك من يشكو من المستوطنين الفرنسيين هناك . فالجمهـورية التي لا يزيد عمرها عن عام ، تتخذ باضطراد هيئة مستعمرة من نوع جديـد . ومع ذلك فقد قابلت هناك بعضاً من هؤلاء المستائين المتزمتين . وقد قالت صاحبة فندق استقرت في دكار منذ ثلاثين عاماً : « انهم ليسوا خبثاء ، ولكنهم اغبياء . خذي مثلًا ، الخدم . لقـد اصبحت وسائل التفاهم معهم صعبة ، وقد اصبحوا متعجرفين . اما الشرطة ، فلم يعد لها من عمل الا مضايقة وازعاج الاجانب . » وقد اقسمت لي ، بجميع القديسين ، ان الامر يصل بحماة النظام هؤلاء — بعد ان انكرت وجود النظام تماماً — الى طلب تناول المشروبات مجاناً في المشرب ، وتهديدها بالويل والثبور اذا طلبت منهم الثمن . اما عدم طاعة الخدم ، فانه يظهر اكثر الاحيان في طلب زيادة الاجور . اما في الزمن الماضي الطيب ، فقد كانوا يعتبرون انفسهم سعداء اذا نال الواحد منهـــم خمسة الاف فرنك افريقي في الشهر . واليوم تحدد نقاباتهم حداً ادنى للاجور ، يضطر الاوروبيون للخضوع لها . بالاضافة الى انه ليس من غير المعقول ان يتلفظ الخادم او الشرطي ، في غمرة انتشائه بالاستقلال الجديد ، ببعض العبارات المهينة للفرنسيين . والحق انه ليس في هذا اي شيء غريب ،

فلقد اهان الفرنسيون كثيراً في السابق الافريقيين . بل انني اعتقد ان من المعقول جداً ان يكون احد الشرطيين قد استعمل بذلته الرسمية بشرب قدح من البيرة مجانا . وهذا جد متواضع . ففي بلدان اخرى ، في ظل نظام آخر ، يقوم الشرطيون بصفقات اكبر واكثر ربحاً ، مع اصحاب المشارب والحانات .

وهكذا ، فالامر بالنسبة لهذه المرأة ليس اشيـــاء محددة ، بل حاجتها الى التشبث باية ذريعة لتغذية حقدها . فهي لم تنس ان تشير الى مقدار قذارة دكار وسوء حالة الطرق والشوارع . وهذا شيء لاينكر فبلدية دكار لاتحسن القيام بمسؤولياتها . ولكن هذا ليس وليد الاستقلال فقد مررت في دكار منذ ثلاث سنوات ، ولم تكن دكار وشوارعها احسن من حالتها اليوم . ولكن اعطاء الاستقـلال للافريقيين يشكل ، في نظرها ونظر امثالها ، عملا وحشياً مناف لطبيعة الامور ، بل اكثر من هذا يشكل بادرة غيرت كل عاداتهم . فبعد ان كانت تخاطب رجلاً راشداً بلقب «صبي» وتتلقى منه خدمات باجر زهيد طوال ثلاثين سنة ، اصبح من الصعب عليها ان تناديه بلقب سيد وان تعطيه اجرته الحقة . كما انه ليس من السهل عليها ان تعتبر نفسها اجنبية ، ولو كان لها نظام يميزها عن غيرها ، في البلد الذي كانت تعتبر فيه نفسها سيدة امام عبيدها .

وعندئذ يصبح كل شيء حسناً للتعبير عن المرارة . لقد حدثني مدير مخزن ، في قاولاك ، انه لايجد من المعقول ان يخاطب الافريقيين بلهجة فرنسية صحيحة فيستخدم عبارات محلية لاتكاد تفهم . وتبرع فحدثني عن قصة عامل سنغالي ، رقي حديثاً الى رتبة « معلم » فكان يدعي حق ادخال اصدقائه الشخصيين في الخدمة . ولم يكن بين ما قاله وما استنتجه

الا خطوة واحدة اجتازها بسهولة حين قال : « لا يمكن الثقة بمثل هذه الاشكال . »

لا يكفي ان يهز المرء اكتافه امام أعمدة الاستعمار هذه ، ففي بلدان افريقيا السوداء ، ظهر ان المستوطنين الفرنسيين اقل خطراً منهم في افريقيا الشمالية ، وباستثناء السنغال ، نستطيع ان نقول انه لم يمض عليهم الوقت الكافي ليعتبروا انفسهم في مقاطعات فرنسية وان عددهم ليس كبيراً كما في الجزائر . بالاضـــافة الى انهم كانوا يعيشون ، غالباً ، في عزلة ، فلم يلجأوا الى وسائل القوة والقمع ، نظراً لان املاكهم لم تكن هائلة كاموال الفرنسيين الذين يعيشون في الجزائر منذ ثلاثة او اربعة اجيال . واخيراً كانوا يشعرون ، عن خطأ او صواب ، انهم لا يستطيعون الاعتماد على دعم فرنسي مباشر من المتروبول . ولكنهم يسايرون السود ، وكانوا يفضلون لو كان باستطاعتهم ان يعيدوا في هذه الدول تجربة استقلال الكاميرون (١)

والفئة الثانية ، اي المتكبرون ، قريبة الشبه بالفئة الاولى . فهذه الفئة كالاخرى ، تتحمل المسؤولية ذاتها اذا استمر سوء التفاهم سائداً في علاقـات البيض بالسود . انها تحاول انكاره وتجاهله . ولكنه قائم لا مرآء فيه . وسلطات شاطىء العاج تحاول التستر فالبيض والسود ، يتبادلون في ابيجان الابتسامات ، ولا يفوت المترعمين من الفئتين اظهار هذا في كل احاديثهم لمندوبي الصحف المحلية والاوربيه . صداقة المظاهر . ففي مذابح

«١» يعرف الجميع ان استقلال الكاميرون صوري تماماً . وقد حدثني الضباط الفرنسيون دائماً عن الاصطدامات التي تحدث يومياً بين الجنود الكـاميرونيين والجنود الفرنسيين المعسكرين هناك .

الداهوميين ، لم يكن سكان ضاحية تريشفيل يفرقون بين هؤلاء والاوروبيين الذين يقعون بين ايديهم . وقد روى لي صاحب مرآب ، من اصل اسباني ، كان يسكن هذه الضاحية الابيجانية ، حادثة طريفة جد معبرة. فقد كان احد جيرانه ، من البيض المفلسين ، يريد ان يعود الى وطنه لان زوجته مصابة بمرض عضال ، ولما لم يكن يحمل الجنسية الفرنسية ، فقد اضطر للتوقف في مصلحة الصحة في شاطىء العاج . فقال له الموظف البسيط عندما حدثه بالامر : « تدبر امرك ، لقد استفدت منا ما يكفيك . فاننا لن نعطيك فوق هذا تكاليف الرحلة . اذا لم يكن معك ما يكفيك للرحيل الى اوروبا ، فلتمت زوجتك هنا . » ولم يتح لي ان اتثبت من هذا الحديث ، ولكنه يتناسب على كل حال ، مع التفكير الذي لاحظته في كثير من مناطق افريقيا ، وليس في ابيجان وحدها .

واستطيع ان اتصور ، دون صعوبة ، مشاعر العديد من الموريتانيين امام الموقف الذي اعلنه بعض الاوروبيين ، غداة اعلان استقلال جمهورية موريتانيا الاسلامية . كانت كل الاراء حول هذا الاستقلال مباحة ، في اللحظة التي اختارها الجنرال ديغول لمنح الاستقلال. فقد كان من حق جميع الذين شاهدوا السيد ميشال دوبريه : يلبس « الشروال » ان يضحكوا بصوت عال . ولهم ايضاً تمام الحق في ان ينكتوا على المعنى الحقيقي لكلمات رئيس وزراء موريتانيا وهو يرحب بابن الاستاذ دوبريه : « اننا جداً متأثرين من وجودكم بيننا ، ايها السيد ، رئيس الوزراء ، لاننا نعرف ضيق وقتك !!! » وقد كانت ابسط مفاهيم اللياقة تفترض بعض الأدب من هؤلاء الاوروبين الذين استمعوا الى السيد المختار يعلن استقلال الجمهورية . ولكن الاوروبيين

لم يتقيدوا بها كما تمنينا . واكتفى الموريتانيــون الشباب بالاستماع الى خطاب رئيس الجمهورية صامتين صمت ابي الهول . وعلى العكس من ذلك قوبلت بعض جمل اولدضيا ، رئيس الوزراء بهتاف وتصفيق حادين . ان الموريتانيين في بلدهم ، والقضية الوطنيـــة تمسهم مباشرة ، وعلى العكس كانت وجوه بعض الشخصيات الافرنسية الحاضرة ، مكسوة بالاحتقار . وكان اصرارهم على الثرثرة بصوت عال عندما ترد جملة لا تعجبهم (١) في كلمات المختار واولد ضيا ، وغمزاتهم التي تعبر عن الشفقة والاحتقار ، وهم يشيرون الى الجوقة العسكرية التي اعيرت من قبل الجيش الفرنسي لتعزف النشيد الوطني لموريتانيا ، كانت كل هـــذه التصرفات فظة حمقاء .

ونأتي الآن الى فئة الابويين غير النادمين . ان من عادتهم ان ينظروا الى السود نظرتهم الى اطفال ، اذكيـــاء في احسن الحالات ، متأخرين همجيين في اسوئها ولا شيء يجعلني اعتقد انهم سيفقدون هذه النظرة . ان هذا النوع من الاوروبيين يشكل الفئة التي تعادل ثقل بعض الشبان الافريقيين الذين لا يجدون القدرة على السير مع الزمن ، لانعدام المرونة والشجاعة والحس السياسي عندهم . واذا اردنا الدقة ، نستطيع ان نقول ان سنغور وهوفويه بواني وفولبيريولو ، هم الاخوة ، بل في غالب الاحيان ، الابناء الروحيون لهؤلاء الابويين . وهم مثلهم ، يتمسكون بالماضي . انهم يعجزون تماماً عن ايجـــاد الكلمات الكافية ليعبروا للمتروبول الام عن عواطفهم وشكرهم على تحضير بلادهم . وهم

(١) وخصوصاً عندما ترد كلمة عن ضرورة ايقاف المذابح الاخوية بين الافريقيين. وعندما يشار الى الجزائريين الذين يصارعون الموت منذ سبعة اعوام .

مثلهم ، يميلون غالباً الى الخلط بين خـــدمهم والتوتو ، اي القرد ، والقطة ، او اي حيوان اليف آخر ، من المناسب جداً معاملته ببعض الرأفة والانسانية ، ولكن لا يجوز على الاطلاق ان يصل الامر بهم الى اعتبارهم بشراً . (١)

والابوية تتخذ مظاهر عديدة ، وقد تتخذ في بعض الاحيان مظهر العواطف . فهؤلاء الابويون يحبون الافريقيين ، تماماً كما تحب عانس عجوز كلبها او قطتها . لقد صادفت بين تلال نواكشوت (٢) انساناً ، او قل ، مزقة من انسان اوروبي ، كان يقاسي لانـــه فقد عشيقته « موسو » . (٣) تصوري اذن ، لقد عشت مع تلك الموريتانية خمس سنوات ، كالزوج مع زوجته ، وعاملتها « كانها كانت امرأتي حقاً » بل انني سمحت لها في بعض الاحيان ان تذهب لزيارة اهلها ... ثم يخلص من هذا الى امتداح الموريتانيات ويصب جام غضبه على الفرنسيات ،

وهذه العواطف التي يتشدق بها الاوروبيون اصبحت من طباعهم لقد روى لي واحد من الطراز الاستعماري القديم ، بكل بساطة شيئاً عن اساليبه في معاملة السود :

«انا آخذهم كما يجب . انني عـــادل معهم . واذا اظهر البعض منهم

---

(١) لقد قال لي العديد منهم : « عندما يتهيأ هؤلاء « الحيوانات» للعض ويظهرون مخالبهم ، فان العصا هي الاسلوب الوحيد الذي يفهمونه »

«٢» بلدة في موريتانيا لا يزيد عدد سكانها عن ٥٠٠٠ نسمة ، « بنيت » منـــذ سنتين ، بناياتها قليلة : ولا تزال الرمال فيها الحاكم المطلق . يعيش سكانها في الخيم والاكواخ الحقيرة .

«٣» موسو هو اللقب الذي يطلقه الفرنسيون على زوجات خدمهم الافريقيين ، وعلى النساء الافريقيات اللواتي يعشن معهم دون زواج .

كفاءة ، دفعته (١) ولكنهم لا يستطيعون المزاح في الاشياء التي تتعلق بالعمل انني دائماً في اثرهم لانه لا يجوز التهاون في مثل هذه الاشياء. اما من ناحية الانتاج ، فان ثلاثة منهم لا يساوون فرداً واحداً من عمالنا . »

والحق ان من عادة هذا الرجل ان يتراجع امام الصعوبات . وهو لا يتردد فعلًا في خدمتهم . ولكنه لا يستطيع ان يتصور ان لا يقابلوا اعماله بالشكر ، او ان يخفوا احترامهم للذي احسن اليهم . وهذا مـــا عبر عنه عندما اسمعني ان على الافريقيين ان يقربوه مظهرين له كل علامات الخضوع والتبعية .

وهذا الشخص ، كا كثرية الاوروبيين من امثاله ممن قضوا نصف حياتهم في المستعمرات ، يحسون ان الاستعمار يجري في عروقهم مع دمائهم . وليس من الممكن ان يبرؤا منه . وهم يقابلون بجفاء ، هـذا اذا لم يظهروا عداءهم لكل صحفي او اي مثقف ، يظهر انه عرف ان عصر ليوتي (٢) قد انقضى . لقد خدم في افريقيا ، او في الهند الصينية او سوريا ، اما بقية الفرنسيين فانهم لا يفهمون شيئاً . بل انه من هؤلاء الذين « يفعلون الخير لوجه الله » فلم يجمع ثروة في حياته هذه . وعندما يعود في عطلاته من اوروبا ، يكون مفلساً اكثر من خدم مكتبه . اما المستثمرون فانهم لا يوحون له الا بالكراهية والاحتقـــار . وهو يقسم الاستعمار بكل خفر الى استعمار صالح واستعمار سيء . اما انه

« ١ » الدفعة او *La pousseé* ، عبارة عن مكافأة قيمتها تتراوح بين مئة ومئتين فرنك شهرياً ، او تعليم حرفة من الحرف كالنجارة مثلا ، او اتخاذه خادماً شخصياً ، اذا كان الافريقي يتصرف فعلا بشكل عظيم .

« ٢ » ليوتي ، هو الجنرال الذي احتل مراكش ونظم الحماية فيها .

ينتمي الى فئة المستعمرين الصالحين ، فان هذا في رأيه ، بديهي لا يحتاج الى اثبات ، وقد امضى موظف اوروبي كبير ، في بوندوكو ثبتته في وظيفته حكومة هوفويه بواني ، وهو ينتمي الى هـــذه الفئة ، امضى طوال السهرة ليثبت لي هذا . لقد نشر الاستعمار الصالح العلم والنور بين هؤلاء الذين « كانوا متوحشين » لقد عمم الطرقات وعمر المستشفيات ، وقضى على العادات البربرية . اما الاستعمار السيء فقد ارتكب اخطاء عديدة ولا شك (١) . ولكن هذه الاخطاء كانت في افريقيا السوداء اقل من تلك التي ارتكبت في شمال افريقيا والشرقين الادنى والاقصى (٢) وخلاصة كل هذه المحاضرات الطويلة التي يلقيهـــا هؤلاء تتلخص فيما يلي :

« لقد قمنا بعمل رائع . كان هناك اعمال اخرى ، ولكن هذه السلسلة من الاستقلالات قد عقدت الامور كلها . ان مهمتنا لما تنته بعـد . وسيعرف الافريقيون ، في وقت قليل ، انهم لا يزالون بحاجة الينا . »

لن اضيـع وقتي ووقت القارىء في تفنيد مزاعم هؤلاء «المستعمرين الصالحين » . مهما كان الامر ، من الواجب ان يعرف الجميـع ان هـذا العصر قد تغير ؛ ان القضية ليست معرفة ما اذا كان نظام الاستعمار امراً حسناً ام لا . (والمستعمرون الجدد ،يحاولون بكل الوسائل ، ابقاء هذا

«١» سأكتفي بتعداد بعض هذه الاخطاء : ضرب ساينون بالقنابل ، واعدام كثير من الجنود السنغاليين واعتقال النواب المدغشقريين . . . الخ . . . .

«٢» ولكن هذه الفئة تنسى مذابح مدغشقر حيث قتل ٨٠٠٠٠ مواطن مدغشقري في مجازر غام ١٩٤٨ . والامثلة عديدة . فعندما كان الاوروبيون يملكون وسائـل الابادة ، كانوا يقومون بها ، ومجازر كينيا والماوماو ليست الا دليلا بسيطاً على هذا «الاستعمار السيء والصالح» . .

النظام ، ولكن بوسائل واساليب جديدة .) ولا يستطيع هــؤلاء « المستعمرون الصالحون » ان عهد الاستعمار قد ولى الى غير رجعة ، انهم في احسن الاحوال ، يجهدون في مسايرة التطور ، دون ان يفهموه. انهم يخشون ان تأخذهم عاداتهم والطباع التي اكتسبوها ، فيصبح من المحال عليهم ان يتأقلموا مع هذا التغيير الجديد. وليس ادل من هذا من رؤية هؤلاء الاوروبيين في مكاتب دكار وابيجـــان او باريس ، في سفارات ومفوضيات جمهوريات افريقيا الفتية ؛ انهم يخشون ان يتهموا بالعنصرية وبالدفاع عن النظام البائد ، فيتوجهون الى اقل حاجب وكأنه سعادة السفير نفسه او معالي الوزير بذاته . وهم يتلعثمون لقوة رغبتهم في اظهار قلة الاكتراث او التعزي بكلمة صغيرة ، فيشدون اقرب يد سوداء اليهم ، ثم يمسحون يدهم بمنديلهم في السر . انهم يسايرون التطور لا نهم خائفون ، لانهم يحاولون انقاذ ما يمكن انقاذه ، وهكذا فانهم يمتدحون بل يبالغون في امتداح الافريقيين الذين يمسكون زمام الامور، رغم انهم لم يتقبلوا في اعماقهم ، هذا التطور التاريخي الحاسم الذي تمر به افريقيا ، فيسارعون للاعتراف، بمخاوفهم واحتقارهم ، امام كل اوروبي يلمسون انه اهل لثقتهم .

وهذا على كل حال لا يعني انهم لا يحاولون التأثير على رؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات وقواد الحلقات . وهم غالباً ما يصلون الى اهدافهم كما يثبت « الحلف » المهتري العزيز على قلب الدكتور هوفويه بواني ، وانفراط الاتحاد المالي ، الذي تجب العودة اليه ، لان ظله لا يزال يغطي كل الحياة السياسية في الغرب الافريقي .

لا يزال بعض الافريقيين الشباب ، الذين لا يمكننا ان نقول انهم من

رجال الامس يؤخذون بامثال هؤلاء الرجال . فقد عجز الاستقلال عن ان يخلق عندهم اي احساس بالحرية . فالعبودية لاي ابيض تشعرهم براحة واطمئنان حديث النعمة . انها حكاية الصبي خادم المطعم ، الذي يحب الى حد العبادة ان يأكل يوم الاحد ، يوم عطلة ، في المطعم حيث يقوم بقية الخدم بخدمته وهو يصر على ان تكون الخدمة كاملة لانه « من المهنة » . لايحق لنا ، نحن الاوروبيين الذين كنا سبباً في نشأتهم هذه النشأة ،لايحق لنا ان نلومهم او ننتقدهم على هذا . فاذا لم يستطيعوا ان يتخلصوا من هذه العقلية فـــان في هذا دليلًا آخر على فشل السياسة الاستعمارية . ولا يغير من طبيعة هذا الفشل ، حرس الشرف الذي يستقبل السفراء الاوروبيين ، او الحفلات البراقة التي تقام على شرفهم.

ان خبث الاوروبيين ، وحب بعض المسؤولين الافريقيين الجدد للمديح هو احدى العقبات الكأداء التي تقف في وجه قيام اتحـــاد فدرالي او كونفدرالي في كل افريقيا. ان الاوروبيين عامة ،والفرنسيين خاصة ، يتصرفون ببعض المنطق . انهم يعرفون انهم يستطيعون البقاء ، بسهولة اكبر ، في افريقيا ، اذا ما بقيت افريقيا قارة متخلفة منعزله... لانه اذا اجتمعت عدة دول متفرقة ، ووضعت امكانياتهـــا المشتركة وثرواتها في عمل مثمر ، فانها تستطيـع ان تعوض بسرعة كبيرة تخلفها التقني والاقتصادي الخ ... وبعد هذا ، لايبقى على الاوروبيين البيض الا شد الرحال، سواء استدعتهم الحكومات المحلية بذاتها كما في السنغال او بقوا بدافع من انفسهم بعد موجة الاستقلالات . بـــل ان بعض المسؤولين الافريقيين قد يشدون الرحال ايضاً في اثر هؤلاء . فلون البشرة لم يكن في يوم من الايام دليل الذكاء او الوطنية.

قد تكون مصالح الاجيال الافريقية السابقة مشابهة ، الى حد ما ،

مصالح المستعمرين ، ولكن الاجيـــال الشابة الصاعدة ، ما عدا بعض الاستثناءات القليلة ، لا تمت الى هذه المصالح بصلة . لقد تبنى موديبو كيتا ، وسيكوتوري و كوامي نكروما ، وغيرهم موقفاً يختلف تماماً عن موقف هؤلاء الذين اشرنا اليهم منذ قليل . طبيعي انهم لا يزالون بحاجة الى الاختصاصيين الاوروبيين ، ولكنهم يحـــاولون اغراءهم بالانخراط في خدمتهم بشروط حسنة الى اقصى حد ممكن . ولكن هؤلاء المهندسين والاطباء والمدرسين يعتبرون كأجانب . ان من حقهم ان يحترموا ، وان يشكروا على خدماتهم ، ولكن ليس لهم اي حق في ان يتمتعوا بوضع مميز .

ان موقف البيض والسود في غانا ومالي واضح جداً . لقـد رأيت منذ عدة اعوام في مرفأ اكرا ، سارية تحمل علماً كتبت عليه العبارة التالية :

« ستعيش هنا مثلنا ، والا فسوف لن تدخل ! »

وعندما مررت اليوم في اكرا ، لم اجد ذلك العلم . كنت اتمنى لو سادت هذه المساواة الى الابد في غانا ، ولكنها ضعفت منذ ذلك الحين صحيح ان احـــداً لا يكره البيض بشكل مبدئي . فغانا عضو في الكومنولث ، وقد سمعت في اكرا اغنية غانية رائعة ، مؤلفة باللغة الانكليزية الغانية ، تشير بنوع من الحنين الى زيارة دوقة كنت لغانا يوم اعلان الاستقلال . وكذلك احتفظ السكرتاريون البريطانيون باعمالهم في مكاتب وزارات غانا , وكذلك هنـــاك كثير من التجار الانكليز ، بل الفرنسيين ، ممن استقروا في البلاد منذ امد طويـل . لم يحسوا بالازعاج ولا يفكرون في الرحيل . ولكن هذا لا يمنـع ان

الاوروبيين الذى بقوا او الذين يأتون حديثاً الى غانا لا يحسون بالراحة انهم يحاطون بستار من انعدام الثقة ، بله العداء .

ان الحكومة لا تسيء معاملتهم على الاطلاق . ولكنها « تعطلهم » عندما تجد ضرورة لذلك (١) وفي اي خلاف يقع بين ابيض واسود ، تجد الجمهور يميل غريزياً الى وضع اللوم على الاول ، ومن النادر ان تقوم الشرطة ، اذا استدعيت للتدخل ،بتصحيح هذا الحكم اللامنطقي (٢).

والفرنسيون الذين استقروا في اكرا وبقية مدن الجمهورية متضايقون.والواقع انفرنسا تتمتع بسمعةسيئة للغاية بسبب حرب الجزائر ، والتجارب الذرية التي قامت بها في ريغان.وقد اوشك نكروما على اتباع خطوات الدكتور ازيكيفيه ، رئيس جمهورية نيجيريا الذي كانت اول اعماله في ميدان السياسة الدولية قطع العلاقات الدبلوماسية مع الجمهورية الفرنسية ؛ ويسود في السفارة الفرنسية جو القلعة المحاصرة . فجميع الموظفين ، من القنصل ، وهو رجل ساحر ولطيف ، الى اصغر ضارب على الالة الكاتبة ، ينتظرون الرحيل بين لحظة واخرى .

وقد حدثني رئيس ورشة في مرآب الشركة الفرنسية لافريقيا

«١» ان مثل اوتيل ليشبونه جد معبر . فهذا الفندق يمتاز بقربه من المطار ، وكان المسافرون يقضون فيه اوقاتهم للراحة من عناء السفر ، صاحبه انكليزي . ولكن الحكومة الغانية ، بنت منذ ثلاث سنوات فندق الامباسادور ، في منطقة بعيدة عن المطار ثم صادرت اوتيل ليشبونه ذات مرة لصالح الجنود الاميركيين الذين نزلوا مرة هناك . وبعدها خصصت سيارتين كبيرتين لنقل المسافرين من المطار الى فندقها ، وهكذا تعطلت اعمال فندق ليشبونة ويريد صاحبه الان العودة الى انكلترا لقلة الاعمال .

«٢» في حوادث السيارات مثلا . عندما يكون احد السائقين ابيض ، فانه دائماً على خطأ ، وهو المسؤول عن الحادث . وقد جربت هذا بنفسي .

الغربية، وهي مستمرة في العمل ،بالاضافة الى كونتوار ، بدأت احواله تتزعزع ، حدثني رئيس الورشة فقال : « هنا ، يقوم الصراع بين البيض والسود علناً . » ان هذه النظرة الى الامور جد متشائمة . فالغانيون بحاجة الى كثير من المشاريع المستعملة ورئيسهم اكثر واقعية من ان ينخرط في حرب من هذا النوع . ولكن هذا لا يمنع من ان الدولاب قد دار دورته . فلم يعد اللون الابيض يشكل ميزة في ما كان يسمى بشاطىء الذهب . بل ان العكس هو الاقرب الى الحقيقة .

ان المكابرين وحدهم هم الذين ينكرون ان في هذه المواقف والاعمال التي اشرت اليها شكلاً من اشكال العنصرية . عنصرية من النوع المضاد للشكل الذي كان موجوداً في السابق .وقد وجدت صعوبة كبرى في اقناع من حدثني في اكرا و كوماسي ان قسماً كبيراً من الفرنسيين لا يؤيدون استمرار الحرب في الجزائر وسياسة الجنرال ديغول هناك كما ان هناك ايضاً كثيراً من الافكار الخاطئة والمسبقة لا تزال موجودة عندنا حول الافريقيين فكثير من الناس عندنا ، وهم اكثر بكثير مما نحب ان نتصور ، لا يزالون يعتبرون الافريقيين من اكلة البشر . صحيح ان هذه العادة لا تزال موجودة في افريقيا ، والضحايا البشرية لاتزال تقدم في بعض مناطق غانا والسودان مثلاً ، ولكن التطور يمحوها تدريجياً وقد قاربت الآن في غالبية المناطق على الاختفاء .

ان وضع الاوروبيين في مالي واضح تماماً ، وخصوصاً وضع الفرنسيين منهم . ففي كايس وباماكو صادفت اكبر عدد من البيض الذين ينتمون الى الفئة الرابعة ، فئة الواقعيين الذين يؤمنون بمثل اعلى

صادق . اذ ان السودان الفرنسي سابقاً ، لم يكن يجتذب من يفتش عن الثروة السريعة ورجال الاعمال ، نظراً لانه كان يعتبر بلداً فقيراً . فقد كان الفرنسيون هناك في غالبيتهم من الموظفين والاداريين ، وقد كانوا في غالبيتهم شرفاء ، واخيراً كان هناك العسكريون . وهؤلاء كانوا يتصرفون وكأنهم في بلد عدو مقهور . وبيت الايتام (١) في باماكو لا يزال يذكر الجميع بهم . ولا حاجة بنا القول ان هؤلاء قد رحلوا بعد اعلان الاتحاد المالي . اما من بقي منهم في اتحاد مالي ، معتمداً على المؤيدين لفرنسا في دكار فقد رحل بعد انفراط الاتحاد الى السنغال . وبقي في جمهورية مالي بعض من الذين لما يفهموا بعد تطور الامور ، ومصيرهم ولا شك ، الرحيل في القريب العاجل . والحق انني لم اصادف منهم اكثر من اثنين او ثلاثة ، سواء في العاصمة المالية باماكو ، او على ظهر الباخرة التي اقلتني في طريق العودة .

اما الاوروبيون الذين لايزالون يعيشون الى الآن في مالي ، فانهم في غالبيتهم من القدماء الذين تأقلموا مع البلاد ولم يعودوا يتصورون ان بامكانهم العيش في فرنسا . فقد تقبلوا بشرف الوضع الجديد . والسيد ج. لاميه ، وهو صاحب فندق وتاجر من تجار كايس ، بالاضافة الى كونه رئيس التجار فيها ، هو ولا شك واحد من هؤلاء . ان منطقة كايس هذه قد اصبحت منطقته ، ولكن ليس على طريقة المستعمرين . اذ انه قدم استقالته من رئاسة غرفة التجارة في كايس ، عندما اعلن استقلال جمهورية مالي ، معتقداً ان هذا المنصب قد اصبح من حق واحد

« ١ » بيت الايتام ملجأ معد لايواء الاطفال اللقطاء الذين يولدون من آباء غير افريقيين وهذا يعني شيئاً كثيراً .

من الماليين . ولكن الماليين لم يقبلوا الاستقالة ، واضيف قائلة ان السيد لاميه هو من بين الذين يعملون منذ سنوات لتحقيق مشروع سدي غوينا وداغانا . وهناك ايضاً بعض القادمين الجدد ، اي الذين وقعوا عقوداً مع حكومة الجمهورية المالية. وهؤلاء كانوا يعرفون، منذ ان شدوا الرحال الى افريقيا ، انهم لن يعبئوا جيوبهم بسرعة وبدون عمل . كما انهم لم يعتقدوا مطلقاً انهم سيستقبلون بدموع الاعتراف بالجميل ، وانهم لن يستطيعوا رفع راية الحضارة الغربية . لقد كانوا على استعداد ، منذ ان داست ارجلهم ارض افريقيا ، للالتقاء باناس مساوين لهم ، لخدمتهم هناك .

وهكذا فان الاستعماريين الجدد يفضلون العمل في السنغال وشاطىء العاج . اما النساء والرجال الذين يختارون العمل في باماكو ، منذ سنة ١٩٦٠ ، ويتركون فرنسا ، فانهم غالباً مايكونون اعضاء في منظمات يسارية . ويأتي بعضهم الآخر دون اية ايديالوجية معينة . لقد عرض عليه عمل ، يقبله دون ان يهتم بالعواطف ، كما قـــال لي طبيب بيطري توقفت عنده قرب سيكاسو . لقد شرح لي انه كان يريد ان يغير محيطه ويزيد في خبرته المهنية بدراسة المواشي الافريقية . لقد وقع عقداً لمدة ثلاث سنوات ، ولكنه لم يكن قد صمم حتى الآن على تجديده بعد انتهاء المدة . وبانتظار هذا ، يقوم هذا الطبيب بواجباته باخلاص وامانة . فالرئيس بالنسبة اليه رئيس ، اعلى منه في الرتبة ، مهما كان لون بشرته .

وحتى في دكار ، هناك بعض الاوروبيين من هذا النوع ، ولكن بشكل اندر . ولكنني مع ذلك اتذكر موظفاً عمـــل في السابق في الكونغو الفرنسي . وقد تعلق بهـــذا البلد كثيراً فطلب الجنسية

الكونغولية . وليس هناك اي خطأ من جانبه اذا كان الاب يولو (١) قد رفض منحها له . ولكنه لا يفكر مطلقاً في العودة الى اوروبا . لقد قال لي :

ان افريقيا الموحدة لم توجد بعد ، ولكنني لا ازال استطيع ان اكون مفيداً للافريقيين .

ان رجالاً كهؤلاء ، يساعدون في تثبيت دعائم افريقيا المستقبل . اما الباقون فانهم طفيليون يدركون او لا يدركون طفيليتهم ، وسيبقون هناك كالدودة ، طالما بقيت التجزئة قائمة في افريقيا .

---

(١) الاب يولو ، رئيس جمهورية الكونغو الفرنسي وقد كان من رجال الدين .

رغم كل شيء افريقيا

افريقيا التي تفجر هذه الينابيع من العواطف ، تثير الكثير من الجدل ، والنظريات والمطالب . افريقيا هذه لم توجد بعد . قد تصبح غداً حقيقة واقعة ، او بعد غد ... ان من المجازفة اطلاق التنبؤات عن الاشياء قبل وقوعها . والتنبؤ عن افريقيا اكثر من مجازفة لان كل شيء في هذه المنطقة من العالم يسير بسرعة ويفضح بسهولة كل احتمالات الهدوء والسكينة . فمنذ خمسة عشر عاماً تكذبت اكثر الاراء رزانة وجدية . كانت روديسيا الجنوبية تعتبر مثلاً جنة الله في ارضه بالنسبة للانكليز الذين يعيشون في كينيا ، في نزاع مع منظمة الماوماو ، وكانوا يتحسرون لان مواطنيهم الذين يعيشون هناك كانوا محظوظين . فالوطنيون لم يكونوا ينذرون بالتحرك في القريب العاجل ولكن روديسيا اليوم تتحرك ككل قطعة من ارض افريقيا ، واذا كانت وزارة المستعمرات في لندن لا تبدي حتى الآن نشاطها وحركتها ، فان هذا لا يعني ان التحركات ستكون اخف منها في المناطق الاخرى ... وانغولا مثلاً ، كانت تتمتع بسمعة كونها اهدأ المناطق على الاطلاق . وكان السكان السود في كابتون وجوها نسبورغ

يعتبرونها جنة عدن .

لقد حدثني احد المزارعين الفرنسيين الذين استقروا في الكونغو البلجيكي السابق منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وكنا بعد في عام ١٩٥٨ ، واكد لي في بولاوايو (١) حيث قضى اجازته : « ان البلجيكيين يمسكون بزمام الامور تماماً . فكل فرد يعرف تماماً مكانه ، ولن يتغير هذا في القريب » .

فماذا حدث ؟؟ !!

ان الحذر واجب اذن . ان كل ما يمكننا تأكيده هو ان القارة الافريقية الآن ميدان معركة تتصارع فيها كل القوى على اختلاف انواعها ، وكل التيارات المتعاكسة . ان وجود عدة دول افريقية ، وحالة العالم اليوم تؤخر تحقق الوحدة . ان للحرب الباردة بين الشرق و الغرب التأثير ذاته الذي يحدث في آسيا . فهذا المعسكر وذاك ، يستغلان تخلف الكتلة الثالثة ، ليشتركا في مزايدة اقتصادية تشبه الى حد بعيد مساومات لا يحسن احدهما اخفاءها . فالدول الاستعمارية القديمة تحاول المحافظة على اماكنها بالاستعانة بالكنيسة الكاثوليكية ، وهكذا تجد الدول التي استقلت حديثاً ، نفسها مضطرة للاختيار بين الاشتراكية والرأسمالية ، لعدة اعوام قادمة ، عندما تقرر طلب المعونة مباشرة من الولايات المتحدة او الاتحاد السوفياتي ، او ان تقبل ببعض التنازلات التي لا تتناسب مع سيادتها القومية ، وكرامتها الوطنيه عندما تقرر طلب عون الدولة التي كانت تستعمرها في السابق . ان كل هذه الجمهوريات التي ولدت بالامس ، تحتاج طبعاً الى الاسراع في التنمية وقبول كل المعونات

(١) عاصمة روديسيا الجنوبية .

التقنية والمالية الخ ... من اي مكان أتت . وهذه المعونات تأتي من بلدان متخاصمة ، فتتجاذب افريقيا من كل اطرافها ، على حساب الوحدة الافريقية المنتظرة .

وفي هذه الاوضاع لا يسعنا الا الوقوف موقف المتشكك من كلمة السيد ليوبولد سنغور ، وهو الذي يملك موهبة الكلام : « سنشق طريقاً افريقياً نحو الاشتراكية . » وقد قال موديبو كيتا الرأي نفسه عندما قابلته في باماكو . والموضوعية تقتضي ان اصرح ان الطريق المالي ليس اكثر افريقية من الطريق السنغالي . وانا لا ارى كيف يمكن للاشتراكية ان تتحقق في السنغال وهو يدور في فلك فرنسا . فاذا كانت الاشتراكية تعني وضع النقابيين في السجون ، فمن الافضل ان يجد المسؤولون السنغاليون لها اسماً آخر .

ومن جهة اخرى ، من غير الاكيد ان تستطيع جمهورية مالي ، وهي التي لا تزال تنتمي الى منطقة الفرنك ، وقد وقعت في ٩ كانون الاول سنة ١٩٦٠ اتفاقية مع فرنسا تعطي فيها هذه الاخيرة لمالي معونة قدرها ١٠٠٠٤٨٥٠٠٠ فرنك افريقي ، من غير الاكيد استطاعتها الحصول في وقت قصير على اجلاء القوات الفرنسية عن القواعد العسكرية التي لا تزال فرنسا تحتلها في اراضيها . او ان تستطيع تحقيق الاشتراكية على هواها . انني اعلم جيداً ان اي بلد ذي سيادة حر في ان يعقد الاتفاقيات التي تناسبه ، ومع اي كان . لقد وقعت مالي اتفاقيات مع تشيكوسلوفاكيا وبعض البلدان الشرعية الاخرى ، ولكننا يجب ان لا نتلاعب بالالفاظ . ان مالي لا تزال مرتبطة بفرنسا اكثر من ارتباطها باي بلد آخر ، وكلما بقي هذا الوضع ، كلما كان عليها ان تراعي

مصالح فرنسا . فالمرء لا يبصق باحتقار الى اليد التي تمد له وتعطيه ما يقيم اوده . ولكننا على الاقل نشاهد محـــاولات للانعتاق من قبل المسؤولين الماليين ان جمهورية مالي ، المرتبطة بروابط وثيقة بغانا وغينيا تكتسب سمعة ووزناً سياسياً على المسرح العالمي .

ان المعونة الشحيحة المشروطة التي تقدمها الدول الكبرى ، تؤدي اليوم في دول افريقيا الى منازعات عقائدية تضاف الى كل ما يفرق هذه الدول . وقد كان هذا ، رغم تصريحات حكومة دكار المناقضة ، كان من الاسباب الرئيسية التي ادت الى انفراط الاتحاد المالي . لقد اعترف لي بذلك الاب هياسينت تيـــاندو ، كاهن كاتدرائية دكار ، دون ان ارجوه لانال هذا الاعتراف. والحق انني كنت اعتقد انه آخر الاشخاص الذين يمكن ان يصرحوا لي بذلك . ونحن نعرف ان الكنيسة المحلية قد تبنت موقفاً مؤيداً للحكومة خلال احداث تموز ١٩٦٠ .

وساستعرض باختصار الاسباب الباقية التي تؤخر قيام وحدة افريقية. ان تفرق القبائل وتعددها الهائل واختلاف اللغـــات ، لا تسهل مطلقاً مهمة الافريقيين الذين يسعون لتوحيد قارتهم . وهذه القبائل تشكل شعوباً صغيرة، لكل منها لغتها الخاصة وما ضيها وتقاليدها ، وهي تتعلق بها بتعصب شرس حاد . وقد كان لتخطيط الحدود التعسفي الذي قامت به دول اوروبا المستعمرة تأثير كبير اذ حدث كثيراً ان قطعت هذه الشعوب الى اقسام يتبع كل منها دولة مختلفة . وهذا لم يضعف مطلقاً شعور مختلف هذه الاقسام بالتضامن والارتباط بعضها ببعض .بالاضافة الى انه كان سبباً في خلق مشكلات صعبة امام الحكام في كل الميادين.

كما ان التعصب الاعمى ، الذي زادته قرون الاستعمار حدة وعنفاً ،

يمنع من قيام لغة دبلوماسية واحدة ،وهي وسيلة لا بد منها لاقامة تبادل فكري بين الافريقيين . صحيح ان التعبير بالفرنسية او الانكليزية ليس عيباً اكثر من عيب وجود عبارات انكليزية على جوزات السفر الفرنسية مثـــلا ، ولكن كثيراً من الافريقيين ، وبينهم عدد كبير من اكثر الافريقيين نشاطاً وحيوية ، لايقبلون هذا الوضع .

وهناك قضية اخرى هي ان الاختلاف بين جيل افريقي والجيل الذي يليه اكبر بكثير من الاختلاف الذي يفصل بين جيلين اوروبيين او اميركيين مثلا .فالاوروبيون الذين بلغوا الثلاثين والذين بلغوا الستين ، لهم ذكريات مشتركة وتجارب مشتركة قد تخلف آراؤهم . بل انهم قد ينتمون الى معسكرات مختلفة ولكن ماضياً واحداً مشتركاً يجمعهم رغماً عنهم في بعض الاحيان . وليس هناك مايقابل هذا عند الافريقيين. ان القدماء، لم يعودوا ،اذا صح التعبير ، افريقيين ولا اوروبيين. فالاستعمار لم ينجح الا في تضييع شخصيتهم . وهم يعيشون اليوم في خوف دائم من الشباب الذين سينتزعون منهم الامتيازات التي نالوهـا ، او ورثوها او اعطيت لهم من قبل البيض . وهم يقابلون هذا بمرارة لا حد لها ، بل انهم قد يستخدمون العنف احيانا . وينتظر الشبان زوالهم وتنحيهم عن مراكزهم ، ومع انتظار الشباب ، تنتظر الوحدة الافريقية .

ومع ذلك فان افريقيا المتحدة هذه ، التي تمتد من دكار الى كابتون، ولم لا ، من المغرب الى رأس الرجاء الصالح (١) ، افريقيا هذه تشكل فكرة قوية جذابة . انها تحرك الاذهان وتفعم القلوب بالحماسة . ان

---

(١) في رايي ينتمي شمالي افريقيا الى العالم العربي اكثر منه الى افريقيا . والكثيرون ينسون ان عامل الصحراء قد بقي لامد طويل حاجزاً يمنع الاتصال الدائم بين افريقيا السوداء ، وشمالي القارة ، او المغرب العربي .

اكبر شعراء افريقيا ايمه سيزار ، وهو رجل سياسي شجاع هادىء ، لا ينى يردد هذا . ويرفع اصدقاؤه وتلاميذه اصواتهم مع صوته . وهكذا يردد الكونغولي مارسيال سيندا : (١)

« تحية ، تحية اليك ، انت يا افريقيا وانت ايتها الشمس

اشرقي انيري اذن فكرنا المظلم !

لماذا هناك دائماً في افريقيا السوداء بلاد الحكايات ،

ذكريات مريرة كالعلقم ؟!؟

ان سنغور في شعره يحس بهذا ، رغم ان سياسة « الرئيس » سنغور لا تساعد الا في تأخير الوحدة اعواماً واعواما .

ان احداثاً ، مثل اجتماع اكرا عام ١٩٥٨ ، — وليس من قبيل الصدفة ان يتم الاجتماع في عاصمة الدكتور كوامي نكروما — احداثاً كهذا الاجتماع تثبت الى اي حد يتوق المسؤولون الافريقيون الحاليون او الذين سيتسلمون مقاليد الحكم في المستقبل ، الى تحقيق هذه الفكرة . لقد كتبت اللجنة الثقافية في مجلة « الوجود الافريقي » يومئذ :

« القضية هي ضرورة تخطي الحدود التي فرضتها اوروبا وبناء الوحدة الافريقية . فهذه الوحدة هي الشرط الاساسي الذي يضمن سلامتنا وامننا في المستقبل : ليس لانها تقيد حرية المناورة لدى الاوساط الاستعمارية العالمية في قارتنا فحسب ، بل لانها على الاخص ، تتيح لنا ان نستخدم بشكل افضل وبفعالية اقوى ، ثرواتنا الاقتصادية والبشرية للتعجيل في نمونا وانسجام المجتمعات الافريقية . . . »

صحيح ان افريقيا لم تصل بعد الى هذه المرحلة ، وعلى الاخص في السنغال وامثاله . ولكن هذا ليس مدعاة لليأس او للارهاق . ان دعاة

---

(١) القطعة اولى قصائد ديوانه الذي صدر سنة ١٩٥٦ تحت عنوان تسابيح الى افريقيا »

الوحدة الافريقية امثال جومو كينياتا وازيكيويه لا يفكرون في اليأس اكثر من نكروما او موديبو كيتا . والحق ان من الاشياء التي تلفت النظر ان الانكليز الذين كانوا على الإجمال اكثر فهماً من بقية المستعمرين الاوروبيين في افريقيا ، من هذه الاشياء ، انهم لم يتجرؤا بعـــد على اطلاق سراح زعماء كينيا . فكينياتا ، الذي كتب اروع كتاب حتى اليوم عن مشاكل افريقيا لا يزال في السجن (١) في نايروبي . ومع ذلك فان الدكتور ازيكيويه (٢) وهو الآن الزعـــيم السياسي لنيجيريا ، وكوامي نكروما لم يتوقفا مطلقاً عن الدعوة للولايات المتحدة الافريقية ومنذ سنة ١٩٣٧ ، بعد ان عاد الدكتور ازيكيويه الى وطنه ، انشأ جريدة : « وست افريكان بايلوت » (مرشد افريقيا الغربية) جعلها منبراً للدعوة والدفاع عن مفاهيمه .

ان هؤلاء الرجال يحاولون قبل كل شيء ان يخلصوا اوطانهم من الحكم الاستعماري . وهذا جد منطقي . ولكن استقلالاً يقتصر على بلدهم ، لا يشعرهم بانتهاء النضال ما دام هناك اراض افريقية يسيطر عليها الاستعمار . وهذا ايضاً منطقي. فماذا يفيد الإستقلال لدولة تحيطها

---

(١) اطلق سراح جومو كينياتا في اواخر العام الفائت ، وقد جرت مباحثات بين الزعماء الكينيين والمسؤولين الانكليز ، بحث فيها مبدأ استقلال كينيا . ولكن المستعمرين لا يزالون يؤلبون القبائل المختلفة التي تسكن كينيا ليقسموها وقـــد استطاع المسؤولون الكينيون بفضل وعيهم واخلاصهم ان يبعدوا خطر التقسيم . وجومو كينياتا اليوم احد الوزراء في حكومة كينيا الانتقاليه .

(٢) تنمدي ازيكيويه هو الزعيم السياسي لنيجيريا . له مؤلفات عديـــدة حول افريقيا اهمها : ليبيريا في عالم السياسة . النهضة الافريقية ، بناء نيجيريا الاقتصادي جهادنا في سبيل الحرية ، الخ . . .

المستعمرات والمحميات من كل جانب ؟ ان المسؤولين فيها لن يجدوا من يتعاونون معه الا الدولة الغاصبة التي كانت تستعمر بلادهم .

قد يكون الصحيح ان هؤلاء المناضلين قد تطلعوا الى قارتهم الافريقية من بعيد فلم يكونوا يتلمسون الواقع الذي تعيش فيه شعوبهم. لقد درس كل من نكروما وازيكيويه في جامعة لينكولن الاميركية السوداء ؛ فرأيا هذا الأتحاد الذي يضم الولايات المتحدة في مساحة لا تقل كثيراً عن مساحة قارتهم . لقد اخذا عن اميركا اشياء كثيرة منها الصحيح والخطأ ؛ لقد اخطآ عندما ظنا ان السود الأفريقيين يستطيعون بسرعة وسهولة ان يصلوا الى مستوى السود الأميركيين ، الذين لما ينالوا بعد المساواة التامة مع بقية السكان البيض ، ولكنهم اكثر رقياً ولا شك من مجموع الشعب في افريقيا السوداء .

ومهما يكن من امر ، فاننا نستطيع ان نقول ان نكروما لم يحد قيد شعره عن الخط الذي رسمه لنفسه .وردود فعله امام القضية الكونغولية تثبت هذا إنه وزملاءه المناضلين الافريقيين لايزالون يثقون تماما بصحة وسلامة معركتهم . ولو لم يكونوا كذلك ، لانتهزوا الفرصة التي اعطاها لهم البلجيكيون والبيض الاوروبيون في الكونغو . لقد اثبت المناضلون الافريقيون لجميع دول العالم الثالث او الكتلة الحيادية ، انهم لايخافون اي شيء ، وانهم على استعداد لمجابهة جميع الصعوبات والمؤمرات والوقوف منها موقفا حازما . ولم يكن نيكروما او موديبو كيتا او سيكو توري بحاجة الى مثل هذا لاثبات ايمانهم . فحتى قبل الاحداث الكونغولية ، كان الرئيس الغاني يصرح منذ بداية حياته السياسية :

« ... ان على القارة الافريقية كلها ان تتحرر وتتحد لتستطيع ان تقوم بدور فعال في المجال الدولي ، وفي التوازن الجديد الذي بدأ في هذا العالم المتغير ... »

وكان ما قاله بعد المأساة الكونغولية اكثر دلالة على تفهمه لقضية الوحدة الأفريقية :

« ... ان امام الدول الافريقية ، كما قلت في السابق ، ثلاثة دروب : الاول ان تتحد وتنقذ قارتنا ، الثاني ان تتفرق وتزول في النهاية ، والثالث ان تبيع نفسها . وبكلمة اخرى انها تستطيع ان تتحد أو تبقى مجزأة فتتقهقر وتزول او ان تبيع نفسها للقوى الخارجية ... »

وعندما وصل هيلاسيلاسي، امبراطور الحبشة الى العاصمة الغانية، انتهز كوامي نكروما هذه المناسبة ليقول :

« ... اننا نناضل في سبيل افريقيا الموحدة والافريقيين . اننا نشعر في وضعنا الحاضر ، ان هذه السياسة هي السياسة الوحيدة التي يجب ان نتبناها في سبيل الاستقلال والتقدم والأمن في افريقيا ... »

ومن جهة اخرى ، اعلن موديبو كيتا ، بعد اشهر من انفراط اتحاد مالي :

« ... سنبقى ولا شك مؤمنين بمبدأ الاتحاد الافريقي ، واننا لانزال نعتبر انفسنا مرتبطين بالقسم الذي اقسمناه في ١٧ كانون الثاني ١٩٥٩ (١) ولكن على الجمهوريه الماليه ، ان تثبت وجودها على الصعيد الافريقي والدولي ، لتستطيع ان تعمل في سبيل الاتحاد ... »

وهؤلاء الزعماء ، موديبو كيتا ، ونكروما وسيكوتوري وعلى الارجح ازيكيويه ، ليسوا وحدهم في ميدان النضال ، ان وراءهم ، لحسن الحظ مؤيدون وانصار. وعبثاً يحاول البعض ان يؤخروا الوحدة، وعبثاً يحاولون ان يتركوا وراءهم دولاً افريقية تتنازع في الوقت

(١) القسم الذي تلفظ به موديبو كيتا وسنغور عند انشاء اتحاد مالي .

الحاضر ، وافريقيين يلعبون لعبتهم، فالوحدة الافريقية ترتسم في الافق. وتنصب اعين دودوغيه وغيره عليها فلا يحيدون عنها . و«لجنة التعاون بين الصحفيين الافريقيين » خطوة في هذا السبيل . وقد جاء في النداء الذي وجهه السيد غيه الى الصحفيين الافريقيين بقصد التمهيد المؤتمر التأسيسي الذي عقد في باماكو ، ما يلي :

« . . . من الآمور العاجلة انشاء هذه المنظمة . ان الصحفيين المجتمعين في باماكو ينادون جميع الزملاء الافريقيين ، في جميع البلدان ، على اختلاف ميادئهم ومعتقداتهم السياسية ، لتكون وحدتهم مفيدة لقضية النضال ضد الاستعمار ، مقوية لفعاليته . . . »

ولم يكن هناك من داع لايراد كلمة الوحدة الافريقية . ان من البديهي ان انشاء منظمات كهذه لا يهدف الا الى الاسراع في تحقيقها

والوحدة الافريقية تتحضر على الصعيد السياسي ايضاً . لقد سبق وتكلمت عن المعاهدة التي وقعت حديثاً بين كل من مالي وغانا وغينيا. أنها امتن من اتحاد مالي الذي انفرط عقده واكثر واقعية وافريقية من الاتفاق الماضي الذي اقامه هوفويه بواني بمعونة المسؤولين الفرنسيين . وسيصبح الاتحاد بين هذه الدول الثلاث قطباً جاذباً لكل العناصر الوحدوية الافريقية .

وكذلك تتركز الفكرة الوحدوية باضطراد في الميدان الثقافي والفني . وهذا الميدان لا يقل في الاهمية عن غيره . ففي دول افريقيا الممزقة ، يلعب الكتاب والفنانون دوراً لا يقل فعالية عن دور السياسيين والدبلوماسيين . انهم يتحملون مسؤولية احياء وتوعية كل مشاعر الشعوب الافريقية ، لان الاتحاد يصبح محالاً اذا لم تتغلب الشعوب على مركبات النقص التي تسبب العداء بينها . فلقد خضع الافريقيون طوال

ستة قرون لتأثير المستعمرين الاجانب المستمر . وقد كان لسعي هؤلاء نتائج قاسية جداً ، فاليأس والاتكالية والسلبية . كانت من الاشياء التي حاولوا زرعها في النفوس . ان على الشعوب الافريقية ان تعي ماضيها وان تعرف قدرتها على التقدم واللحاق بركب الحضارة . ان عليها ان تعيد انسانيتها الى نفسها وتتخلص من الزيف والتلويث اللذين لحقاها طوال عهود الاستعمار . ان الشعوب الافريقية لا تزال تقاسي من مركبات النقص التي تدفعها للتظاهر بالتفوق . وليس غريباً ان نسمع السيد كوفي اوتوبام ، الرسام والنحات الغاني ذا السمعة الدولية ، ليس غريباً ان نسمعه يقول : « ... لقد فقد الفن في اوروبا معناه . بينما نجد ان اقل الاشياء في افريقيا غنية بمادتها الفنية !!! » ان السيد اوتو بام لم يكن يريد ان ينفي ما حققه الفن الغربي من عظمة واعجاز ، ولكنه كان تحت تأثير ضرورة تلح عليه ان يتطرف ليدفع الافريقيين للنهوض والثقة بانفسهم .

والامر بالنسبة للمثقفين والفنانين الافريقيين هو نبش الماضي واظهار ما يمكن ان يحيي التضامن بين الافريقيين ويقويه . وهذا لا يمكن ان يتم دون تأكيدات من هذا النوع ودون اضطراب في الاحكام ، على الاقل ، في كثير من الاحيان . وهذا غير مهم ، المهم الهدف الذي يجب ان يتحقق : الوحدة الافريقية . وهذا ما يؤمن به المشرفون على منظمة « الوجود الافريقي » والشخصيات الافريقية التي تدعو لاقامة مؤتمرات دورية للفنانين الافريقيين ، والكتاب السود ، كالمؤتمر الذي عقد في روما في نيسان سنة ١٩٥٧ وكالندوة التي عقدت مؤخراً في «رويومون» . ففي هذه الاجتماعات يتكلم المندوبون كثيراً وينفسون عن مرارتهم

وخيباتهم ، وتعود اليهم شجاعتهم. وليس في هذا اي ضرر . انهم يتصلون ببعضهم بعضاً ويتعارفون ، الامر الذي يقوي الصلات ويركزها . وانا واثقة انه لو كان بالاستطاعة ايجاد صلات اكبر بين الكتاب والفنانين السنغاليين والماليين ، فان اتحاد مالي قد يعود من جديد .

وعلى هذا تكون بعض المجلات امثال مجلة « الوجود الافريقي » الناطقة بالفرنسية ، و «بلاك اورفيوس» الناطقة بالانكليزية ، تكون هذه المجلات جد مفيدة . فالمدرس النيجيري الذي ينسجم مع كتابات كامارا لايه (١) الغيني الاصل ، هذا المدرس يفهم تماماً الغينيين ، ويفهم بسهولة اكثر الاشياء التي تجمع بين بلده وغينيا . وكذلك ، تزداد معلومات الطالب الكاميروني او الداهومي عن افريقيا ، عندما يقرأ بعض الصفحات الرائعة للروائي بيتر ابراهام (٢)

ان الافريقيين لم يصلوا بعد الى مرحلة من النضوج التام الذي يمكنهم من خلق افريقيا الموحدة . ولكن الفكرة دون شك ثابتة في اعماقهم . حماقة المستعمرين المجرمين التي لا تشفى ، تعجل في تحقيق هذه الوحدة . فالبلجيكيون باغتيالهم باتريس لومومبا ، او بدفعهم تشومبي لقتله ، قد تكفلوا مثلاً باعطاء الافريقيين ما كانوا بحاجة ماسة اليه ، في الظروف الراهنة : بطل يتعدى الحدود ، او اذا فضلنا غير هذه التسمية نقول

(١) روائي غيني معاصر نال جوائز عالمية كثيرة اهمها جائزة شارل فايون ، عام ١٩٥٤ على روايته « الطفل الاسود » .

(٢) روائي من جنوب افريقيا ، يعيش الأن في جاميكا . وهو ينشر رواياته في لندن ، وهي تعد من اكثر الروايات العالمية اثارة وصدقاً في تصوير حياة الآلام في افريقيا .

جان دارك افريقية . لقد اشارت كثيرات من الصحف الاوروبية ان لومومبا هذا ، لم يكن سوى مستخدم بسيط في دائرة البريد والبرق والهاتف ، افترسه الطموح، بل انه حكم عليه بتهمة الاختلاس والتلاعب بالاموال ... الى غير ذلك من التهم . فحتى لو افترضنا ان كل هذه التهم صحيحة ، فان هذا ليس له اية اهمية على الاطلاق . لقد فشلت هذه الحملة في اظهار لومومبا على غير حقيقته ولم تحقق غايتها في وصمه بالعار . فسواء أكان لومومبا مختلساً او افريقياً عبقرياً ، فانه قد استطاع ان يصيب البلجيكيين وحلفاءهم في الصميم فيفشلون فشلاً ذريعاً في خططهم . فهؤلاء المتربعين على كراسي الحكم في بروكسل او ليباج لن يشعروا بالعزاء اذا علموا ان هزيمتهم كانت نتيجة لنشاط سارق او لص . اما السكان الافريقيون ، الرجال منهم والنساء، فانهم لا يصدقون هذه الحكايات التي ترويها الصحف الغربية ، وهم يشعرون بالاهانة عندما يسمعونها ، ويحسون ان موت لومومبا قد اصابهم في الصميم، وهم لا يجدون في هذا الا دليلاً جديداً على حقارة الاستعمار بين الاوروبيين. كان من الممكن للومومبا ان يفشل، لو ظل على قيد الحياة، في المجالات التي نجح فيها نجاحاً هائلاً بعد موته. وهكذا ، ما ان علمت نساء السنغال بخبر مصرعه والطريقة الوحشية التي تم بها ، حتى امتلأت اثوابهن بصوره وكلماته . وكانت جموع الافريقيين في شاطيء العاج وغينيا والداهومي وغيرها من دول افريقيا ، كانت الجموع تعلن عن استنكارها وهي تقف جنباً الى جنب تشعر بالوحدة ، امام السفارات البلجيكية في افريقيا . لقد احست القارة فجأة بوحدتها وتضامنها مع رجل واحد ، هو لومومبا . ولا يحتاج الامر الا الى تصرفات دنيئة من هذا النوع حتى

تجرف الثورة الجماعية كل شيء ، الحدود وتشومبي وامثاله ، و كالونجي وامثاله ممن ينصبون انفسهم ملوكا وسلاطينا !!

وتخلف دول افريقيا يساعد بدوره على تقريب العناصر الشابة الفتية النشيطة . فالبطالة الدائمة المزمنة او الموسمية تضطر هذه العناصر الى التفتيش عن العمل خارج المدينة ، وخصوصاً خارج الحدود . فبعض الماليين من سكان كايس يذهبون الى باماكو ، بل الى ابيجان ليحصلوا على العمل . بل انهم قد يرحلون في بعض الاحيان الى ابعد من ابيجان . فعندما توقفت لفترة قرب كوماسي ، بجانب المرآب ، حدثني عامل المرآب بالفرنسية . وفهمت منه انه من سيكاسو ، وانه يأمل ان يستطيع العودة قريبا الى موطنه . انه يسكن غانا منذ سنتين . وضاحية تريشفيل تضم جالية سنغالية . كما ان في باماكو كثيراً من الغينيين . والامثلة من هذا النوع كثيرة متعددة لا يمكن حصرها .

واخيراً ، عملت الادارة المستعمرة نفسها ، دون ان تشعر بتقريب الشعوب بعضها من بعض . فدكار ، بالنسبة للفرنسيين كانت عاصمة افريقيا الغربية الفرنسية ، وبرازفيل كانت عاصمة افريقيا الاستوائية الفرنسية . وكان في دكار مدارس عديدة ، بينما كانت برازفيل خالية تقريبا . ونتج عن هذا الامر ان الشبان كانوا يهرعون من كل صوب وحدب في افريقيا الغربية الفرنسية وافريقيا الاستوائية الفرنسية ، كانوا يهرعون الى دكار لمتابعة دروسهم . بالاضافة الى ان الموظفين الوطنيين كانوا يعينون في المراكز التي يظن الرؤساء انها تناسب الضرورات . ولم يجد المسؤولون الجدد اية ضرورة للتخلي عن هؤلاء الموظفين او الاستعاضة عنهم بمواطنين يحملون جنسية البلاد يعملون في بلد افريقي آخر والجمركي الذي يلبس

البزةالسنغالية على حدود غينيا ، ويفتش الشاحنات القادمة الى كونا كري هو من مواطني شاطيء العاج . وهو يقوم بوظيفته منذ ثماني سنوات . وكذلك يحتل احد المارتينيكيين منصباً عالياً في عمدة ابيجان ، وقد كان احد المارتينيكيين ايضاً وزيراً في باماكو . وانا اذكر الآن ذلك السوداني الذي كان لا يزال يعمل خادما بستانيا عند قائد حلقة تامبار. كوندا . صحيح ان هذا الرجل الطيب متزوج من سنغالية ، وهو يخشى ان يفقد عمله بين عشية وضحاها . ولكن بقاءه في السنغال ، بعد اربعة اشهر من انفصال السنغال عن مالي ، امر مشجع مطمئن .

وانا اعتقد ان العادة التي جرت عليها العائلات الميسورة في ارسال اولادها لمتابعة دروسهم في المتروبول ، وهي العادة التي اكتسبها الحكام الجدد ايضاً في تخصيص بعض المنح للشبان الموهوبين ، هـــذه العادة تشكل في رأيي عاملا من عوامل التقريب بين الافريقيين . فالصداقات التي تعقد في الحي اللاتيني وعلى جبال القديسة جنفياف ، تقاوم في غالب الاحيان الدعاوات الحكومية . وهذا من العوامل التي تساعد في بنـاء الاتحاد الافريقي العتيد .

ان من الواجب القيام بمبادرات كثيرة متعددة ، واعمال مختلفـــة لاعطاء هذا الاتحاد شكله المعين . وسوف لن اجازف بالتنبؤ عن الوقت الذي سيحقق الافريقيون فيه هـــدفهم . كل ما اعلمه هو ان هناك افريقيين عديدين ويعملون دون كلل وبثبات لتحقيق هذا الحلم . كما ان هناك ، على العكس ، اناساً يستخدمون كل ما لديهم من قوة لاعاقته . وهاتان الفئتان متساويتان تقريباً في العدد . ولكن الفئة الاولى فتيـــة

ونشيطة اكثر من الثانيـــة . ولذلك ليس من السخف الاعتقاد انها ستنتصر . ان القضية تثقل كثيراً على قلوب كل الشبان المتحمسين في افريقيا . ولذلك فان حلها لا شك آت لا ريب فيه .

***

الخلاصة

« طوبى للكايلسورا الملكي »
« طوبى للذين لم يخترعوا اي شيء ! »
« للذين لم يكتشفوا اي شيء ! »
« للذين لم يعرفوا السيطرة على اي شيء ! »

هذه الابيات لايميه سيزار، الشاعر الافريقي الكبير ، وهي موجودة في قصيدته الطويلة المؤثرة : « دفتر عودة الى الوطن » . قد يعترض البعض علي ويلوموني لانني اقوم بدراسة عن افريقيا ، ولا اقدم اطروحة عن الادب الافريقي .

ولكنني لم اختر هذه الأبيات ، لاصدر بها هذا الفصل عبثاً . انها افصح من كثير من التصريحات السياسية والخطب الحماسية ، لانها تشرح بشكل رائع واضح ما في ثورة افريقيا من سلبية حتى اليوم . ويجب ان نؤكد على هذا . فدول افريقيا التي كانت فرنسا تستعمرها لم تضطر للثورة او للنضال من اجل الاستقلال فقد استفادت من المعركة التي كان الجزائريون يقومون بها (١) وقد نتج عن ذلك ان الجماهير الشعبية لم

(١) وقد حدث هذا ايضاً في الدول التي كانت بريطانيا تستعمرها عندما نشبت في كينيا المعارك التي قامت بها الماوماو . الامر الذي اضطر الانكليز الى منح الاستقلال لبعض الدول المجاورة .

تشعر انها معنية مباشرة بهذا الحدث التاريخي الذي يشكله تحرر اوطانها انها لم تشارك فيه الا بطريقة غير مباشرة (١) .

وهذا يعني ان مصير هذه البلدان التي استقلت حديثاً ، مرتبط برباط وثيق بفئة قليلة من الافريقيين الذين يمسكون بمقاليد الامور في هـذه الشعوب الفتية الناشئة التي لما تساهم وتشارك بعد في حكم نفسها بنفسهـا بكل ما في الكلمة من معنى .

ان على هذه الفئة القليلة من الافريقيين ان تغير وجه القارة السوداء في المستقبل . ولهذا فانهـــا تتألم كثيراً وتتحمل مسؤوليات جساماً وتحس انها حرمت من القيـــام بحرب تحررية . ولم يكتف بعضهم بالوقوف موقف المتفرج . لقد اشرت في الفصل الذي خصصته لرجـال المستقبل الى بعض من هؤلاء . ان دودو غيه وموديبو كيتا وغيرهم ، عرفوا السجن ، والاقامة الجبرية مثل جومو كينياتا و كوامي نكروما. ولكن الامر كان انتفاضة افراد او جماعات قليلة . فلم تقم هناك ايةثورة والانتفاضات تقوم دائماً في اعقاب فترات طويلة من السلبية ،وهي دائماً تتخذ طابع السلبية . فالثورة التي تمحو القديم وتضع البذور الجديـــدة مكانه تختلف عن الانتفاضة التي ينحصر دورها بمحاولة قلب الحاضر دون ان يكون لديها مخطط للمستقبل ، فهي محاولة للتخلص من الم الماضي او لاعادة مجد الماضي ، الامر الذي يجعل تحمل الحاضر امراً سهلاً ، وهي تكتفي بهذا دون ان تتصور او تخطط وتعد للمستقبـــل ، ولكن الانتفاضات مفيدة جداً لانها البشير بالثورات . ولكن هذه الثورة لمـا

(١) ان هذا يثبت ان النضال في سبيل الاستقلال يخلق وعياً قومياً عنيفاً ويؤدي الى دفع الشعب الى المشاركة في هذا النضال بكل قوة وحماس .

تهز بعد البلاد التي كانت تعرف باسم افريقيا الغربية الفرنسية ،وافريقيا الاستوائية الفرنسية .

وحتى سنة ١٩٣٩ ، كان المتمردون الافريقيون يكتفون بالنضال ، والقلم في ايديهم ، او عندما يقبلون الانتقال الى الميدان السياسي ، كانوا يكتفون ببعض الخطب التي يلقونها في بعض الاجتماعات الجماهيرية . ولهذا كنا نرى تلك اللهجة اليائسة التي تشبه البكاء والتي كانوا يعبرون بها عن احتجاجاتهم . فايمه سيزار يمجد هؤلاء الذين لم يخترعوا اي شيء ، لاننا، نحن البيض ، لم نترك لهم المجال ، هؤلاء الذين لم يكتشفوا اي شيء ولم يسيطروا على اي شيء ، هؤلاء المساجين ،مساجين البيئة الطبيعية ومناخ القارة الرهيبة ، وغزاتها الذين كانوا يخترعون ويكتشفون ويسيطرون . وقد حان الآن دورهم في البناء والاكتشاف . فاذا تركوا هذه الفرصة تفوتهم دون ان ينتهزوها ، فانهم قد يخسرون قروناً طويلة اخرى ،اذا لم نقل انهم قد يخسرون الى الابد فرصة تاريخية جد ملائمة ، ووضعاً فريداً خلقتهما الحرب العالمية الثانية . لان حرباً عالمية ثالثة ، ستكون وبالاً على الافريقيين كما هي بالنسبة للانسانية جمعاء ، لان اية قارة لن تستطيع تجنب شرورها . وقد فهم ايمه سيزار هذا الامر فدخل الى الميدان السياسي وتحول الشاعر الى نائب . وهو يحاول اليوم بكل ما يستطيع من قوة وجهد ان يعد افريقيا الموحدة التي لا يمكن لاية دولة غيرها في افريقيا «ان تعيش في عالمنا الحاضر» . وغداً ، سوف يحصل على استقلال الانتيل المرتبط مباشرة بالعالم الاسود تماماً كارتباط مدغشقر وجزر الهند الغربية الانكليزية .

ويمكننا ان نأمل ان الردة السنغالية ستأتي على ايدي هؤلاء الشبان

السنغاليين الذين سبق واشرت اليهم عندما تحدثت عن رجال المستقبل ، وستقوم الثورة على اكتاف شبان مالي وغانا وشبان شاطيء العاج الذين لم تخفف الوظائف العالية والدارات المكيفة الهواء من نضاليتهم وثوريتهم وقدرتهم على الكفاح . لقد اتاحت لي رحلتي ان الاحظ ان هؤلاء الشبان اكثر تحررا من اخوانهم الذين يكبرونهم قليلا . لان هؤلاء لايزالون ، رغم تعلقهم بالاستقلال، يشعرون ببعض مركبات النقص تجاه الاوروبيين لم يتخلصوا بعد منها او من بعض التقاليد الافريقية البالية ، مركبات من كل نوع لاتزال تؤثر على مجريات تفكيرهم وتصرفاتهم .

لقد انهمك بعض الافريقيين، من امثال الشيخ انتاديوب ، في التفتيش عن معالم الثقافات الافريقية . وهم لا يهتمون بمحتوياتها الفنية والروحانية والفلسفية ، الا ليقابلوها بالثقافة الغربية وهم يتكلمون في غالبيتهم لغتين. لغة قبيلتهم الخاصة ولغة الدولة المستعمرة ، وهم يقيسون انفسهم دائما باوروبا . ان وراءهم الكثير من العبيد ، الكثير من الضحايا ، الكثير من الاهانات لدرجة ان احقادهم ومرارتهم نفسها تحمل شيئا من الاعجاب والحسد . انهم يحكمون علينا بشكل عام في الوقت الذي يشعرون فيه بتفوقنا . ان جهازاً من اجهزة « الترانزيستور » اوغســالة كهربائية تقنعهم بثقافتنا اكثر من عجائب فلورنسا ولوحات اللوفر . ان الشبان يسخرون من هذه، فالسيدان ب ... و د ...(١) يهتمان بجمع اسطوانات موسيقى الجاز والتشا–تشا–تشا، ولكنهما لا يهتمان مطلقا بباخ اكثر من اهتمامهما بقرع طبول التام — تام .

وهم في غالبيتهم يجهلون هذه المركبات الثقافية التي لم يتخلص منها

(١) اللذان اشير اليهما في فصل الشباب الافريقي

الشيخ انتاديوب او غيره فعلاً . وهذا ما يفسر تصرفاتهم التي ترتدي في غالبيتها ، طابع العدائية . كما ان الكهوف والحانات الجنسية التي انشأناها في مستعمراتنا الافريقيةلا تعذبهم على الاطلاق انهم يفضلون على الاجمال الفتيات البيض لانهن مثقفات !! والواقع ان تحرر المرأة الافريقية لا يزال في بدايته ، فلم يؤثر بعد الا في عدد بسيط من الشابات الافريقيات ولكن العلاقـــات الحميمة مـع بيضاء لا تشكل بالنسبة اليهم فتحاً عظيما او انتقاماً ذريعاً او وحشية هائلة . لقد سبق واشرت الى انهم يلومون سنغور لانه تزوج اوروبية من نورمانديا الفرنسية ، لاسباب سياسية قومية بالدرجة الاولى ، لانهم يظنون ، عن حق او غير حق ، أنها هي التي تمنع زوجها من ان يشعر ويتصرف كأفريقي .

ان علاقة الأسود ببيضـــاء تشكل بالنسبة للافريقيين الذين تخطوا الثلاثين ، نصراً مريراً ولست بحاجة الى القول انهم كثيراً ما لايشعرون بذلك . ومع ذلك فان هناك اليوم في غانا وغيرها تقليعة الزواج من بيضاء . ان الافريقي الذي ينجح في التزوج من بيضاء يثبت بالبرهـان الحسي نجاحه ، تماماً كما لو انه اشترى سيارة .

والشبان لم يصلوا بعد الى هذه الدرجة ، كما انهم لم يمروا فيها مطلقاً . وهم متحررون ، بالدرجة نفسها ، من التقاليد الافريقية البالية القديمة . انهم لا ينكرون ، بالطبع ، وبشكل محتوم ، دين آبائهم . انب . . . و د . . . مسلمان ، وهما لا يخفيان هذا ، كما ان وجودهما في باريس او في دكار او ابيجان لا يجعلهما ينسيان الامور التي نهى عنها القرآن والحق ان الامر ليس عادات وتقاليد دينية بل حياة قبلية قاسية . ففي غانا ، كما في شاطيء العاج ، هناك قرى بكاملها يسكنهـــا افراد عائلة

واحدة ، ويمنع منعاً باتاً ، بيع اية قطعة من الارض لاي غريب ،حتى ولو كان من سكان القرية المجاورة . وهناك كثير من الامور المشابهة لهذا المنع ، وهي تنتشر في كل افريقيا ، من اقصاها الى اقصاها . ان الجيل الذي ينتمي اليه اكثر الحكام تقدمية في افريقيا ، قد تحرر من هذه التقاليد الى حد ما ، ولكنه لا يزال يداري ويساير حتى في طريقته لاعلان تخليه عنها . ان الموجة الجديدة لم تصل اليه بعد . ولذلك فان حريته تجاهها كاملة تماماً . فهل يستطيع هذا الجيــــل ان يتابع ويثبت اقدام هذا الاتحاد الافريقي العتيد الذي يطمح اليه سيكوتوري، و كوامي نكروما ، وموديبو كيتا ، والمناضلون من امثالهم .

طبيعي ان هناك بعض من يتهرب من هذه المهمة . بل انني عرفت بعض الشبان الماليين في باريس ممن لا يرون اية اهمية لهذه الوحدة ، كما انهم لا يتصورون ان من الممكن تحقيقها . لقد قال لي احد الشبان الذين تعدهم الحكومة للوظائف الدبلوماسية : « انني هنا (في باريس) احس انني افريقي ، ولكنني عندما اعود الى بلدي ، فانني قبل كل شيء مالي . » كأنما تنفي كل صفة الصفة الاخرى ! ! ولكن اغلب الشبان الذين صادفتهم في دول افريقيا المختلفة باستثناء بعض اللامباليين امثـال ه ... او بعض الذين شاخت عقولهم وهم بعد في سن الشباب امثـال نديا ليااليه في سان لويس في السنغال ، اغلب الشباب لا يؤمنون بمثـل هذا . ان فكرة الوحدة الافريقية عميقة الجذور في قلوبهم تماماً كما هي عزيزة على من سبقهم في الجيل المخضرم . وليس في تعلقهم هـذا بالوحدة الافريقية كثير من العواطف والاهواء او الرغبة في تعويض ما يحسونه من نقص في نفوسهم . لقد وعوا ان اية دولة من دول افريقيا المتعددة

لا تستطيع في الوقت الحاضر ان تتغلب وحدها على تخلفها او ان تعوض تأخرها في جميع الميادين ، وان من الافضل التعاضد والتساند بدلاً من الاعتماد لسنوات طويلة على « اصدقاء » متجردين .

وسرعان ما سيصبح هؤلاء الشبان مدعومين من قبل الشابات والنساء . فالتحرر النسائي فيافريقيا لا يزال في بدايته ، رغم انه متقدم في بعض دول افريقيا اكثر من دول اخرى . وانا اعيد هنا الى الذهن مثل الغانيات اللواتي يتمتعن بجميع الحقوق التي لا تزال غالبية الافريقيات في الدول المستقلة وغير المستقلة،محرومة منها.وهن يتقدمن بسرعة كبرى ، ككل شيء على هذه القارة المتحركة . ان كثيراً من المنظمات ، الدينية وغير الدينية تكافح من اجل تحقيق المساواة الحقوقية والمدنية بين النساء الافريقيات والرجال . انها تنقض على العادات التي تقاسي النساء منها ، كحق الاهل بتزويج الفتيات دون موافقتهن ، وطلب المهور الفاحشة ، ... الخ...ان المنظمات الدينيه تجهدلاكتساب قوة جديدة بين النساء بالدعوة لحرية شخصية اكبر او تقوية هذه الحرية عند من آمن بها . ان المدنيين غيرالافريقيين يخضعون لعادات وتقاليد اكثر انسانية ، فالنساء في افريقيا لا يزلن يعتبرون كالمحظيات والخدم بل الحيوانات التي تشرى وتباع . ومن بين التقاليد في كثير من القرى الافريقية ، ان على المرأة ان تفلح الحقل بمساعدة ابنائها .وفي نهاية العام، يأخذ الرجل حصيلة الموسم . اما النساء ، فكل مكافأتهن مشط او حلية من العاج . ولن اتكلم عن حوادث الطلاق الكثيرة التي تحدث.فالرجل يحتفظ بزوجته اذا اراد،ويطلقها اذا اراد ، وهو ايضاً يحتفظ اولا يحتفظ باولاده. ومن السهل جداً ان نتصور المآسي الاجتماعية التي تنشأ عن هذا

التعسف. اما المهر الفاحش فانه يجعل زواج الفقراء صعباً او شبه مستحيل بينما يشكل بالنسبة للاغنياء عاملاً مساعداً لان اهل الزوجة مضطرون لاعادته في حالة الطلاق .

ومهما كانت الاسباب التي تدفع المناصرين المرأة والمعادين لهـا للدفاع عن كرامة وحقوق الافريقيات ، فان من مصلحة دول افريقيا الحالية ، ودولة افريقيا الموحدة في المستقبل ، ان ينتصر التيار الصحيح السليم فيتحرر نصف المجتمع الافريقي من العبودية والخوف . ولا شك ان النساء سوف يجتزن القرن العشرين والمستقبل بتصميم وحماس يفوقان تصميم وحماس الرجال. اما في الوقت الحضر فان المرأة الافريقية تشكل اليد العاملة الكفيلة بسد العجز الهائل في اليد العاملة في القارة الافريقية المضطرة للاسراع بتنمية الصناعة بكل الوسائل .

ان رغبتهن في العلم ومقدرتهن على العمل وحماسهن لكل ما يمس افريقيا لا حدود لها . وثباتهن وجلدهن لا يصدقان . لقد مررت منذ ثلاث سنوات في كينيا وتانجنيقا ، وكنت اقف مصعوقة امام الفلاحات اللواتي كن يحملن على رؤوسهن احمالاً جد ثقيلة لدرجة ان الرجال الذين كانوا يساعدوهن على وضعها على رؤوسهن كانوا يجدون صعوبة في حملها.

وفي الحبشة ، وخصوصاً في القسم الجنوبي والاوسط منهـا ، تعمل النساء طوال اليوم في الحقل بينما يتنزه الرجال ويثرثرون .

ان الطالبات الغانيات ، كالطالبات السنغاليات والداهوميـات والكاميرونيات المسجلات في جامعات باريس وبقية الجامعات الفرنسية يدرسن بتعلق وولـه شديدين وينلن نتائج مشرفة جـداً . كما انهن في المنظمات الطلابيـة السياسية والثقافية ، يناضلن باخلاص وجدية

لاحدود لها .

وها قد انتهيت الآن تقريباً من هذه الجولة السريعة في دول افريقيا التي استطعت ان ازورها هذه المرة . وانا اعلم ان هذه الدراسة اصغر من ان تخلو من الشوائب والاخطاء . ففي عشية يوم رحيلي الى هذه القارة التي احبها – ولابد ان القارىء قد لاحظ هذا – كان الوقت يحشرني ؛ فلقد كنت قادمة لتوي من رحلة اخرى الى القارة السوداء ، لم يكن يفصلها عن رحلتي الجديدة اكثر من اسبوعين .

وفوق كل هذا ، اتوقع ان يغضب اصدقائي الافريقيون ويتضايقون مني على هذه الدراسة . ولكنني اتقبل كل هذا منهم . انني احترمهم واقدرهم اكثر من ان اتخيل امامهم انني اتحدث الى اطفال مصابين بالحساسية المرضية والعصبية . فمنذ ان اكتشفت بنفسي حقيقة المآسي الافريقية ، حاولت جهدي ان اشهد عليها ، وان اضع مواطني وابناء جنسي ، الذين قد يقرأون احياناً ما اكتب ، امام مسؤولياتهم التاريخية التي يتحملوها امام الاجيال والانسانية .

بعد هذا ، لا اعتقد ان احسن الوسائل والاساليب لاصلاح الامور هي ان امدح ضحايانا بالامس (١) ، او ان اتراجع واخضع مسبقاً في اية مناقشة ، لان من الافضل عندئذ ان تخرس المناقشة قبل بدايتها .

لقد بذلت قصارى جهدي لاروي بنزاهة وتجرد ما رأيته وسمعته او ظننت انني فهمته . والخلاصة يمكن ان اوجزها بما يلي :

ان دولة افريقية متحدة لما توجد بعد حتى هذه الساعة ، كل ما هنالك

---

(١) المقصود فيها ضحايا المآسي التي سببها الاستعمار الاوروبي في افريقيا ، وخصوصاً الفرنسي .

دول افريقية تبحث عن نفسها ، وتتخبط بين الماضي والحاضر ، تتقارب في بعض الاحيان الى درجة قوية وتتقاتل في احيان اخرى وتتنازع الى حد حمل السلاح . وهذه الدول ، باستثناء غانا وغينيا ومالي ، يحكمها رجال يحسون بالخوف والخشية من التغييرات التي طرأت خلال السنوات الخمس عشرة التي تلت الحرب العالمية الثانية . هؤلاء الرجال يتعلقون بالماضي ، لانه عصرهم الذهبي ، ولانهم مدينون له بالغنى والسلطة . ان حرباً عواناً لا هوادة فيها تضعهم امام احفادهم وابنائهم . وهؤلاء يعرفون ان دولاب التاريخ قد دار وانه يتابع دورانه . صحيح انهم يرتكبون بعض الاخطاء وبعض الاهمال ، ولكن هذا طبيعي وانساني ولكنهم على الاقل ، يحتفظون بطريقهم المستقيم ، نحو المستقبل . انهم ينزعون الى انشاء اتحاد كونفدرالي ثم فدرالي لا بد منه لتكسير اطواق الاستعمار القديم والجديد .

ان كثيراً من الرجال الافريقيين يؤمنون بوحدة قارتهم ولا يتراجعون امام اية عقبة او بذل اي مجهود لاقامتها ، او للتدليل على انها لا بد قائمة في المستقبل .

ان امثال هوفوية بواني وسنغور وفولبير يولو ، يحاولون عبثاً ان يضاعفوا مناوراتهم ، ويستفزون او يشجعون كل ما من شأنه الابقاء على الانقسام وزيادة عمقه وحدته . ولكننا دون ان نحسب مجهودات الذين ودون ان يؤمنوا لافريقيا المركز اللائق بها بين دول العالم ، هناك عوامل كثيرة تساعد على تحقيق فكرة الوحدة الافريقية التي هي « فكرة – قوة » ان افريقيا القرن العشرين ، بحاجة الى مصانع ومدارس وطرقات اكثر مما هي بحاجة الى اشعار صحيحة او كاذبة . انها بحاجة الى

مواطنين واقعيين ، واثقين من انفسهم ومن الدور الذي عليهم ان يقوموا به ، وليست بحاجة الى « نيغريتود » ذلك الفراغ الثقافي الذي انما وجد ليسلي ويعزي الاطفال المصابين بالامراض العصبية . ان الاطباء والعلماء يفيدونها اكثر بكثير من الكتاب والمؤلفين . كما ان دموع التماسيح التي يذرفها المستعمرون الاوروبيون لا تساعدها على التوصل الى اي حل لاية مشكلة من مشاكلها .

ان افريقيا الموحدة ليست خيالاً محضاً ، رغم الوضع المجزأ الحالي الذي قد يخيب الآمال . ان لدى القارة الافريقية ما يكفيها من الحيوية والامكانات والايمان للتوصل الى هذه الوحدة ، هذا اذا لم تحاول الدول الاستعمارية القديمة ان تعقد وتخلط الامور ، كفرنسا التي عملت طويلاً لفك اتحاد مالي وبلجيكا التي اتخذت كل التدابير التي تكفل خلق الفوضى في الكونغو . ان على المعسكرين الكبيرين ان يتوقفا عن المساومات الاقتصادية والمالية التي لا تنجح الا في نقل ميدان الحرب الباردة الى الدول الافريقية الفتية .

بعد هذا ، ليس هناك اي داع لكي لا نثق ثقة تامة بكوامي نكروما الذي اصبحت غانا بفضله اكثر بلدان الغرب الافريقي تقدماً ، وبسيكوتوري الذي يحقق الاشتراكية رغم كل الصعاب ، وموديبو كيتا الذي يحاول بعناد وثبات وشجاعة ان يتغلب على كل المصاعب في السودان ، البلد الفقير ، والصعوبات التي نشأت عن انفراط اتحاد مالي .

وفوق كل هذا ليس هناك اي سبب يجعلنا نشك بامكانية هؤلاء الشباب الذين يجهدون ، رغم كثير من العقبات والحواجز ، ويعملون لتحقيق

اتحاد افريقي هو السبيل الوحيد ، في رأيهم ، الى شفاء افريقيــــا من الجراح التي سببها الاستعمار . وعلى كل حال ، فان هذه امنيتي الصادقة المخلصة ، ازجيها لافريقيا فلتصبح هذه القرية ... هذا العالم . . هذا الخيال ، فلتصبح اخيراً « افريقيا » .

***

فهرست

الموضوع	الصفحة

تم طبع هذا الكتاب على
مطابـــع دار الصحافة
بيروت — تلفون : ٢٢١١٢١
في ايـار سنة ١٩٦٢

مصير

افريقيا

- كتاب غربي نظيف عن تطور القارة الافريقية وسيرها في طريق التحرر .

- **الى اين تسير القارة السوداء المناضلة ؟**

- ما هو موقف الدول الافريقية من المعسكرين المتصارعين ومن عدم الانحياز ؟

- هل تسير افريقيا الى الوحدة والاشتراكية ؟

- ما هو تأثير الثورة الجزائرية على تطور افريقيا ؟

- **هذا ما تجيب عليه ابحاث هذا الكتاب وصرا[illegible] وجرأته .**

الثمن : ٢٠٠ ق . ل .

٢٥٠ ق . س.

او ما يعادلها